أشهر الأساطير الفارسية

د. أحمد حسين بكر



دار مشارق


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



أشهر الأساطير الفارسية

تأليف

د. أحمد حسين بكر

الناشر

دار مشارق

بطاقة فهرسة

فهرسه دار الكتب الوثائق القومية

اشهر الأساطير الفارسيه/ أحمد حسين بكر - القاهرة : دار مشارق للنشر والتوزيع ٢٠٠٧

ص ، ١٧ × ٢٤سم

١ - الأساطير الفارسيه

أ - العنوان :

رقم الإيداع: ٢٣١١٢ / ٢٠٠٧

٣٩٨,٢٢

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

دار مشارق للنشر والتوزيع

١٥ شارع الفاروق عمر بن الخطاب - طالبية - فيصل

ت: ٣٧٢٤١٨٠٣ - ٠١٢٦٨٧٢٩٠٦ - ٠١٠٥٥٩٣٣١٧

إيميل: mshareq@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى شرفنا بالقرآن الكريم وجعل لنا فيه أحسن القصص، فقال تعالى: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف: ١-٣]، وقال عز وجل: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]. وبعد...

ترتبط الأسطورة دائماً فى ذهن القارئ بالخرافة وما لا يمكن وقوعه من أحداث، كما ترتبط أيضاً بالبدايات الأولى للإنسان على هذه الأرض والأزمنة السحيقة التى تحيط بها غلالة ضبابية لم يستطع التاريخ اختراقها ليسجل لنا بدقة ما دار فيها من أحداث، مما أتاح الفرصة لخيال الشعوب للقيام بمهمة ملأ هذا الفراغ. وتعرف المعاجم كلمة أسطورة بما يؤكد هذا الربط، ومن ذلك القول بأن

" الأساطير الأباطيل والأساطير أحاديث لا نظام لها واحدتها إسطار وإسطارة بالكسر وأسطير وأسطيرة وأسطور وأسطورة بالضم وقال قوم أساطير جمع أسطار... ثم أساطير جمع الجمع وسطرها ألفها وسطر علينا أتانا بالأساطير... يقال سطر فلان علينا يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل يقال هو يسطر ما لا أصل له أى يؤلف وفى حديث الحسن سأله الأشعث عن شئ من القرآن فقال له والله إنك ما تسيطر على بشئ أى ما تروج يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها وتلك الأقاويل الأساطير". ويستعمل القرآن الكريم كلمة الأساطير فى حديثه عما لا أصل له من الأحاديث، كقوله تعالى: ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنفال: ٣]. وقد وردت هذه الآية فى النضر بن الحارث الذى كان على علم بشئ من أساطير الفرس، وكان يحدث بها قريشاً ليصرفهم عن رسول الله (ﷺ)، وجاء فى كتب التفسير عن سعيد بن جبير، « ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾، قال: هو النضر بن الحارث ». وعن السدى، قال: « كان النضر بن الحارث بن علقمة من بنى عبد الدار يختلف فى الحيرة، فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلما قدم مكة سمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن فقال:﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ».

والإيرانيون من أكثر الشعوب التى تمتلك الأساطير، فقد هاجر الآريون من موطنهم الأصلى إلى إيران ومعهم الكثير من قصصهم ورواياتهم وأساطيرهم عن الأجداد الذين عاشوا معهم فى مكان واحد فى ربوع آسيا الوسطى، ثم دخلوا فى سلسلة من الحروب مع سكان الهضبة الإيرانية الأصليين ومع المهاجمين المعتدين الذين هاجموهم بعد استقرارهم فى ربوع إيران، وعندئذ ظهرت القصص الجديدة عن الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى هذه الحروب، وانطلق الخيال الشعبى فى اختلاق العجائب والغرائب والخوارق حول هؤلاء الأبطال

وبطولاتهم، وانتقلت بهم هذه العجائب من جانب التاريخ إلى جانب الأسطورة مع إغفال البعدين الزمانى والمكانى، وحدث تغيير فى هذه الأساطير والقصص بمرور العصور والأزمان، وكان ذلك نتيجة التغييرات الفكرية والدينية وظروف البيئة المحيطة.

تراكمت القصص والأساطير الإيرانية وتزايدت ومرت عليها القرون إلى أن تكاملت وانتظمت وصارت معدة للتدوين، بدأ هذا قبل الإسلام، فى عهد الدولة الساسانية، حين دونت الأفستا وغيرها من الكتب الدينية والحماسية بما تحتوى عليه من أساطير القوم. واستمر هذا الأمر إلى أن ظهرت حركة تعمل على جمع شتات هذه الأساطير وتنظيمها فى القرن الرابع الهجرى، وهو القرن الذى عادت فيه القومية الإيرانية إلى الظهور، وعمل فيه الإيرانيون على إحياء تراثهم وتاريخهم القديم، فكتبت كتب الروايات والملاحم والأساطير المعروفة بالشاهنامات، أى كتب الملوك، والتى تتحدث عن تاريخ ملوكهم الأسطوريين.

كتبت بعض الشاهنامات النثرية والشعرية التى فقدت ولم يبق منها إلا إشارات قليلة فى ثنايا الكتب، غير أن أعظم هذه الشاهنامات هى شاهنامة الفردوسى التى نظمها فى ما يقرب من ستين ألف بيت، وهى موجودة حتى الآن، وقد احتوت على معظم ما عرفه الإيرانيون من أساطيرهم وتاريخهم منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى.

وقد اخترت لهذا الكتاب أربع أساطير من أشهر أساطيرهم، ورتبتها فى ترتيبها المعمول به فى الكتب التى جمعت أساطير الفرس، وهذه الأساطير هى:

١ ــ أسطورة الضحاك، واعتمدت فى هذه الأسطورة على نص منقول من كتاب «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» لأبى منصور الثعالبى، وهى أسطورة تحكى قصة الملك الذى أغواه الشيطان فقتل أباه ونمت على كتفيه

حيتان كان يقتل من أجلهما رجلين كل يوم، وظل يحكم إيران ألف عام إلى أن ظهر أفريدون وحاربه وانتصر عليه وحبسه فى جبل دماوند.

٢ ـ أسطورة زال والعنقاء ورودابه، واعتمدت فى هذه الأسطورة على نص منقول من ترجمة «الشاهنامة» للبندارى، وهى أسطورة تحكى قصة زال الذى ولد بشعر أبيض من شعر الشيخ لطاعن فى السن فألقاه أبوه على قمة جبل ألبرز، وهناك أخذته العنقاء لعشها وربته مع أفراخها، إلى أن كبر وذهب أبوه فأعاده إلى بلاده حيث عشق روذابه (رودابه) حفيدة الضحاك وتزوجها بعد رفض من الملك منوجهر (منوچهر)، ثم ولدت له رستم بعملية جراحية أشبه بما نسميه اليوم بالقيصرية، حيث أشارت عليه العنقاء بشق خصرها واستخراج الطفل ومداواة الجرح.

٣ ـ أسطورة رستم والخطوب السبعة، واعتمدت فى هذه الأسطورة على نص قمت بترجمته من شاهنامة الفردوسى، وتحكى هذه الأسطورة قصة بطل أبطال أساطير الفرس، وهو رستم بن زال الذى يذهب لنجدة كيكاوس ملك إيران من أسر الجنى الأبيض، ويواجه فى الطريق سبع شدائد إلى أن يصل إلى مازندران ويقتل الجنى الأبيض ويحرر الملك الأسير.

٤ ـ أسطورة الإسكندر، واعتمدت فى هذه الأسطورة على نص منقول من ترجمة الشاهنامة للبندارى، وتحكى هذه الأسطورة قصة الإسكندر العجائبية التى امتزجت فيها الحقيقة التاريخية بالخرافة، فصار الإسكندر المقدونى فيها ابناً للملك الإيرانى داراب وشقيقاً للملك دارا الذى أسقطه عن عرشه وأزال ملكه. ثم طاف مشارق الأرض ومغاربها فاتحاً غازياً ورأى فى هذه الرحلة العجائب والغرائب إلى أن توفى.

وأخيراً، هذه بعض الأساطير التى انتشرت بين الفرس، وجاءت فى كتبهم،

ونقلها عنهم المؤرخون والكتاب المسلمون وغيرهم، أقدمها للقارئ العربى، مقدماً لها ومفسراً لبعض نقاطها، وأرجو أن تنال إعجابه وأن توجهه إلى قراءة المزيد منها فى مصادرها الأصلية كالشاهنامة وكتاب غرر ملوك الفرس وغيرهما، للاطلاع على تراث رائع لأمة قدمت الكثير من أدبها وفنونها للعالم، وقدمت أساطيرها أيضاً.

والله من وراء القصد

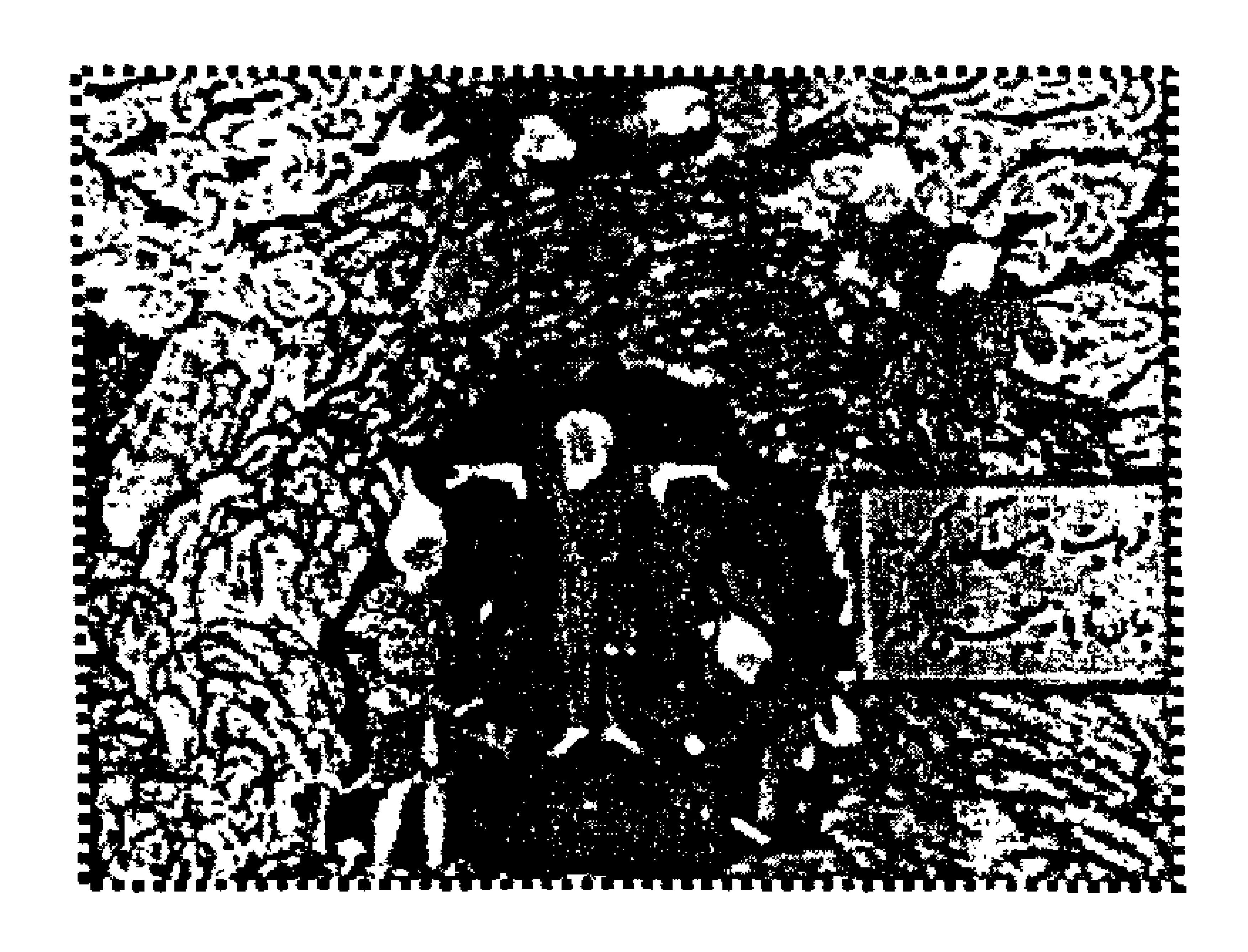
د. أحمد حسين بكر

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



الضحاك



الضحاك(Zohak)، هو الملك الخامس فى سلسلة ملوك إيران الأسطوريين، وأسطورته من أقدم الأساطير الإيرانية، فقد جاء فى تلك الأساطير أن الضحاك أو بيوراسب من أصل عربى، وهو ابن ملك يدعى مرداس (Mardas)، وهو رجل عابد تقى صالح، يؤمن بالله ويؤدى فروضه ويطيعه، لكن الشيطان يغرى ولده الضحاك بقتله والاستيلاء على الحكم من بعده، وقام الابن بتنفيذ الحيلة التى وسوس له بها إبليس، وقتل أباه. وفى ذلك الوقت كان جمشيد (Jamshid) ملك إيران قد تجبر وتكبر فانقلب عليه شعبه واستنجدوا بالضحاك الذى استولى على

حكم إيران لمدة ألف عام سام فيها الناس ألوان العذاب. وتقول الأسطورة أيضاً إن إبليس ظهر له بعد ذلك فى هيئة طباخ ماهر، وطلب منه أن يقبل كتفيه مكافأة له على حسن خدمته له ثم اختفى بعد ذلك، وبعدئذ ظهر ثعبانان من المكان الذى قبله فيه، وكانا يؤلمانه بشدة، وكلما قطعهما كانا يظهران من جديد، ولم يعرف الأطباء علاجاً له حتى ظهر إبليس ثانية فى هيئة طبيب وأخبره عن علاجه وهو إطعام الثعبانين بأدمغة الناس، فكان يقتل كل يوم شابين لهذا الغرض. حتى كان يوم أخذ فيه رجال الضحاك شابًا هو ابن رجل حداد يدعى كاوه (Kaveh) ليقتلوه ويطعموا الثعبانين، فجاء كاوه إلى بلاط الضحاك، واستغاث وصرخ من الظلم، فاضطر الضحاك إلى إطلاق ابنه ليشهد كاوه بعدل الضحاك أمام كبار المملكة الذين اجتمعوا للشهادة على عدله، ولكن كاوه يخرج من البلاط رافضاً ذلك، فيجتمع عليه الخلق، ويدعوا الناس إلى العدل، ويرفع قطعة الجلد التى كان يضعها على صدره عند العمل على رأس رمح، ويدعو الناس إلى مساعدته والذهاب لاستدعاء أفريدون (Fereydoon) ليقضى على الضحاك، وعندما رأى أفريدون تلك الراية سُر بها وأطلق عليها (درفش كاويانى)، وسار معهم حتى هزم الضحاك، وقيده فى الأغلال وحبسه فى جبل (دماوند) فى مغارة فهو فيها يعذب إلى يوم القيامة.

ذكر الضحاك فى الأفستا – كتاب الزردشتيين المقدس – باسم «اژى دهاك» (Agi - dahaka) و«اژى» (Agi)، كما أنه يذكر فى المصادر الفارسية والعربية «اژدهاق» و«أزدهاق». وهذه الأسماء هى أصل كلمة «ضحاك» التى تأتى فى الشاهنامة وكتب التاريخ الأخرى. وقد ذكر الطبرى سبب هذ التغيير فى الاسم فقال فى تاريخه: " والعرب تسميه الضحاك فتجعل الحرف الذى بين السين والزاى فى الفارسية ضاداً والهاء حاء والقاف كافاً".

والضحاك في المصادر الفارسية التي تعود إلى ما قبل الإسلام، كالأفستا والكتب البهلوية الأخرى، مخلوق شيطاني، الجزء الأول من اسمه وهو «اژی» يعني الثعبان بلغة الأفستا، والجزء الثاني وهو «دهاك» بمعنى المخلوق الشيطاني، فقد خلقه أهريمن (الشيطان) طبقاً لهذه الروايات وسَلطه على العالم المادي ليدمر عالم الخير، وهو يتسبب في الضرر والفتنة والفساد. وتصوره الروايات في هذه الكتب في صورة الوحش الشيطاني الخطير الذي له ثلاثة أفواه وثلاثة رؤوس وست عيون، وهذه الصورة من بقايا الأساطير التي كانت للشعب الآري في موطنه الأول قبل التشعب وهجرة بعضه إلى الهضبة الإيرانية. كما أنه في بعض الروايات روح شريرة أو شيطان يمنع ماء السحاب من النزول إلى الأرض. ثم يتحول اژی دهاك بعد ذلك إلى ملك شرير، ومن أجل التوفيق بينه وبين الصورة القديمة للثعبان ذي الرؤوس الثلاثة نجد قصة ظهور الثعبانين على منكبيه بعد أن قبلهما الشيطان.

أما المصادر الإسلامية فإنها تجعل الضحاك ملكاً عربياً يتمثل فيه كل الشر، وهناك أقوال كثيرة في نسب الضحاك وأصله وسيرته، نجد هذه الروايات في كتب مثل: عيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينوري وتاريخ الطبري والبلعمي ومروج الذهب والتنبيه والإشراف للمسعودي وسني ملوك الأرض لحمزة بن الحسين الأصفهاني وغرر أخبار ملوك الفرس للثعالبي والآثار الباقية للبيروني وشاهنامة الفردوسي وكامل التواريخ لابن الأثير. وما ذكره الطبري في تاريخه عن ذلك نموذج لما ذكره المؤرخون المسلمون. يقول الطبري: " قال واليمن تدعيه، حدثت عن هشام بن محمد بن السائب فيما ذكر من أمر الضحاك هذا قال والعجم تدعي الضحاك وتزعم أن جماً كان زوج أخته من بعض أشراف أهل بيته وملكه على اليمن فولدت له الضحاك. قال واليمن تدعيه وتزعم أنه من أنفسها وأنه الضحاك بن علوان بن عبيد بن عويج، وأنه ملك على مصر

أخاه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج وهو أول الفراعنة، وأنه كان ملك مصر حين قدمها إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. وأما الفرس فإنها تنسب الازدهاق هذا غير النسبة التي ذكر هشام عن أهل اليمن وتذكر أنه بيوراسب بن ارونداسب بن زينكاو بن ويروشك بن تاز خرواك بن سيامك بن مشا بن جيومرت. ومنهم من ينسبه هذه النسبة غير أنه يخالف النطق بأسماء آبائه، فيقول هو الضحاك بن أندرماسب بن زنجدار بن وندريسج بن ثاج بن فرياك بن ساهمك بن تازى بن جيومرت، والمجوس تزعم أن ثاج هذا هو أبو العرب ويزعمون أن أم الضحاك كانت ودك بنت ويونجهان وأنه قتل أباه تقرباً بقتله إلى الشياطين وأنه كان كثير المقام ببابل وكان له ابنان يقال لأحدهما سرهوار وللآخر نفوار. وقد ذكر عن الشعبى أنه كان يقول هو قرشت مسخه الله ازدهاق.

وحدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة بن الفضل عن يحيى بن العلاء عن القاسم بن سلمان عن الشعبى قال أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت كانوا ملوكاً جبابرة، فتفكر قرشت يوماً فقال تبارك الله أحسن الخالقين فمسخه الله فجعله أجدهاق وله سبعة أرؤس فهو الذى بدنباوند وجميع أهل الأخبار من العرب والعجم تزعم أنه ملك الأقاليم كلها وأنه كان ساحراً فاجراً. وحدثت عن هشام بن محمد قال ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون والله أعلم ألف سنة ونزل السواد فى قرية يقال لها نرس فى ناحية طريق الكوفة وملك الأرض كلها وسار بالجور والعسف وبسط يده فى القتل وكان أول من سن الصلب والقطع وأول من وضع العشور وضرب الدراهم وأول من تغنى وغنى له. قال ويقال إنه خرج في منكبه سلعتان فكانتا تضربان عليه فيشتد عليه الوجع حتى يطليهما بدماغ إنسان فكان يقتل لذلك فى كل يوم رجلين ويطلى سلعتيه بدماغيهما فإذا فعل ذلك سكن ما يجد فخرج عليه رجل من أهل بابل فاعتقد لواءً واجتمع إليه بشر كثير فلما بلغ الضحاك خبره راعه فبعث إليه ما أمرك وما تريد قال ألست

تزعم أنك ملك الدنيا وأن الدنيا لك قال بلى قال فليكن كلبك على الدنيا ولا يكونن علينا خاصة فإنك إنما تقتلنا دون الناس، فأجابه الضحاك إلى ذلك وأمر بالرجلين اللذين كان يقتلهما فى كل يوم أن يقسما على الناس جميعاً ولا يخص بهما مكان دون مكان قال فبلغنا أن أهل أصبهان من ولد ذلك الرجل الذى رفع اللواء وأن ذلك اللواء لم يزل محفوظاً عند ملوك فارس فى خزائنهم وكان فيما بلغنا جلد أسد فألبسه ملوك فارس الذهب والديباج تيمناً به. قال وبلغنا أن الضحاك هو نمرود وأن إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه ولد فى زمانه وأنه صاحبه الذى أراد إحراقه ".

والنص الذى اخترته لأسطورة الضحاك من كتاب «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» للثعالبى، وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبى النيسابورى (٣٥٠-٤٢٩هـ)، من أئمة اللغة والأدب فى زمانه، وقد لقب بالثعالبى لأنه كان فرّاء يخيط جلود الثعالب ويعملها. وقد عاش الثعالبى فى نيسابور، وكان واعية كثير الحفظ فعرف بحافظ نيسابور، وأوتى حظاً من البيان فاق فيه أقرانه فلقب بجاحظ زمانه، وعاش بنيسابور حجّة فيما يروى ثقة فيما يحدّث مكيناً فى علمه ضليعاً فى فنه فقصد إليه القاصدون. وقد توفى الثعالبى فى الثمانين من عمره تاركاً ما يزيد على الثمانين مؤلفاً منها: (يتيمة الدهر) أربعة أجزاء فى تراجم شعراء عصره، و(فقه اللغة)، و(سحر البلاغة)، و(من غاب عنه المطرب)، و(مكارم الأخلاق).

أما كتاب الغرر الذى نقلت منه نص أسطورة الضحاك فإنه من أهم المصادر التى احتوت على جزء كبير من أساطير إيران، وقد كتبه الثعالبى قبل عام ٤١٢هـ وهو عام وفاة أبى المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين الذى كتب الثعالبى كتابه باسمه. وقد ألفه فى فترة قريبة من الفترة التى نظمت فيها

الشـاهنامة، أعظـم الكتـب المحتويـة علـى أسـاطير الفـرس، واعتمـد كـذلك علـى مصـادر الفردوسي، ولذلك نجد نفس الترتيب للموضوعات، ونجد كذلك التشـابه الشديد فى تفاصيل الموضوعات.

وأسطورة الضحاك، كما سيأتى فى نص الثعالبى، تتناول قصـة ذلك الملك من نهاية حكم جمشيد (جم) إلى سقوطه على يد أفريدون، والشخصـيات المهمـة فـى الأسـطورة هـى شخصـيات: الضـحاك، أفريـدون، كـاوه. وجـاء نـص الأسـطورة تحت العناوين التالية:

- ذكر آخر مر جم
- ملك بيوراسف
- ذكر تبديل الطباخين أحد الدماغين
- ذكر الرؤيا الهائلة التى رآها الضحاك
- ذكر آخر أمر الضحاك وأول أمر أفريدون.

أسطورة الضحاك

ذكر آخر أمر جم

لما تم أمر جم وجمت عنده أموال الدنيا وعظم شأنه وعلا ملكه وسلطانه وامتد زمانه وطال عليه الأمد قسا قلبه وأشر وبطر وتكبر وتجبر وطغى وبغى، وقال أنا ربكم الأعلى، وأنف من العبودية فترقى إلى ادعاء الربوبية فلم يلبث أن خبا قبسه وكبا فرسه وسقطت قوته واضمحلت هيبته وزال عنه شعاع السعادة الإلهية، وحدثت فى ملكه الأحداث ولحقه الالتياث وخرجت عليه صنوف الخوارج وعضته أنياب النوائب وقصده الضحاك الحميرى المسمى بالفارسية بيوراسف من أرض اليمن فى جيوش كثيفة وشوكة شديدة فانقض عليه انقضاض العقاب على الأرنب فهرب منه جم متنكراً، واستولى الضحاك على مُلكه ومِلكه وحرمه ونعمه وخيله ورَجله ودقه وجله، ولم يزل يتتبع أثره وينصب الأرصاد له حتى ظفر به فى بعض السواحل فى أقبح صورة وأسوأ حالة، فصاده كما يصيد الهر الفأر ونشره بالمنشار[1]، ويقال إنه ألقاه إلى السباع حتى مزقته بأنيابها ومخالبها ثم رجع إلى مركز عزه وسرير ملكه وكانت مدة

---

[1]) تذكر بعض المصادر ومنها الشاهنامة أن جمشيد ظل مختفياً عن أعين الضحاك مائة عام إلى أن ظهر فى يوم على سواحل بحر الصين فظفر به الضحاك ونشره نصفين بالمنشار.

ملك جم خمس مائة وعشرين سنة ويقال أقل وأكثر والله تعالى أعلم بالصواب.

ملك بيوراسف

العجم تسميه بيوراسف، والعرب تسميه الضحاك، ويقال عن ازدهاق وهو الثعبان واليمن تدعيه، وقد افتخر بكونه منهم أبونواس في قصيدته التي منها:

وكان منا الضحـاك يعبده   الخابل والجن في مساربها

وعنى بالخابل الشيطان. والعرب تزعم أنه الضحاك بن علوان، والعجم تقول إنه بيوراسف بن اندرماسف من ولد سيامك بن كيومرث، وإنما سمي بيوراسف لأن بيور باللغة الفهلوية ما جاوز مائة ألف من العدد، وكان له أكثر من مائة ألف فرس بسروجها ولجمها وما يليق بها من صنوف الأموال، فقولهم بيوراسف أي صاحب مائة ألف فرس، وكان أبوه ملك اليمن[1] فسول الشيطان للضحاك قتل أبيه، وقال له إن قتلته فأنا الكفيل لك بأن تقتل جمشيد الملك وتستولي على ملك الأقاليم، فاحتال لاغتيال أبيه حتى ملك ما كان ملكه وتقوى بذلك على أخذ الأهبة لمغالبة جم على ملكه، وطفق يحدث نفسه بها ويبني أمره عليها، وتراءى له إبليس يوماً في صورة آدمي، وقال أنا رجل طباخ حاذق بصنعة الأطعمة الملوكية التي تصلح لك، فإن رأيت أن تستخدمني فيها فعلت، فأمره بصنع أنموذج منها ليذوقه فتأنق إبليس في طبخ لون شهي لذيذ وقدمه إليه فاستطابه جداً وولاه مطبخه، وكان الناس في ذلك الزمان قلما يطعمون اللحوم، فأراد إبليس أن يغريه بأكلها كلها ليكون أقسى قلباً وأجرأ على سفك الدماء وأطوع له فيما يشير به عليه فما زال يدرجه من لحوم الطير إلى لحوم الحملان

[1]) تذكر الشاهنامة اسم هذا الرجل وهو مرداس (Mardas)، وتزعم أنه كان عابداً تقياً يخاف الله، وأن الضحاك ابنه حفر له حفرة في البستان الذي كان يقيم فيه الليل في عبادة الله، وسقط هذا الرجل الطيب القلب في الحفرة فمات قتيلاً.

ومنها إلى لحوم الضأن ومنها إلى لحوم الثيران، ويصنع له أطايب الألوان وهو يستطيبها ويلتذ بها ويعجب بها ويمعن فيها حتى تعود أكل اللحوم ولم يصبر عنها، وكان نهماً شرهاً والمعدة شيطان رجيم، فأحمد إبليس على إجادة الصنعة وارتضى حسن أثره فى الخدمة، وقال له: سل حاجتك. فقال حاجتى أن تشرفنى بالإذن لى فى تقبيل منكبيك. ونفخ فيهما من خبثه وسحره فخرجت بهما حيتان سوداوان كلما قطعتا عادتا كما كانتا، ويقال بل كانتا سلعتين على صور الحيات فكانتا تضربان وتضطربان عليه وتؤلمانه جداً وهو يصيح ويتضور ويتململ ويتأوه ولا يجد نوماً ولا قراراً. وكان إبليس لما فعل فعلته به هام على وجهه ثم دخل عليه في صورة أخرى وقال أنا طبيب عارف بدائك ودوائك ولا يقدر أحد على معالجتك غيرى. فقال له: إن عالجتنى وسكنت ما بى فأنت أعظم الناس لدى وعندى، ولن تعدم حسن جزائى وجزالة عطائى. فقال: إن هاتين الحيتين لا تفارقانك ما عشت ولكنهما تسكنان بأن تطعما من أدمغة الآدميين فيسكن وجعك ويستريح بدنك. فأمر بقتل رجلين شابين واستخراج أدمغتهما وإطعامهما الحيتين فسكنتا وسكن الوجع، واستراح الضحاك ونام نوماً غرقاً فلم ينتبه من الغد إلا باضطراب الحيتين واستعادتهما العادة بالطعمة فأمر بأن يقتل رجلان آخران ويفعل بأدمغتهما ما فعل بأدمغة المقتولين فسكنت الحيتان ثم أمر بأن يفعل ذلك فى كل يوم. وهول بالحيتين على الناس، وذكر الطبرى فى التاريخ أن أكثر أهل الكتب يقولون أن الذى ظهر بمنكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان وكانتا تضطربان عليه وتوجعانه ولا تسكنان ما لم تطليا بأدمغة الآدميين الطرية، وكان يسترهما بالثياب، ويرى الناس على طريق التهويل أنهما حيتان، قال وجميع أهل الأخبار يزعمون أنه ملك الأقاليم وكان ساحراً ماهراً فاجراً، وحدث عن ابن الكلبى أن الضحاك أول من سن القطع والصلب وأول من سن العشور وضرب الدراهم والدنانير وأول من غنى وغنى له، وعن

غيره أن إبليس كان صادقه وزين له الكفر والسحر والفسق وعبادة الأصنام وسفك الدماء بغير حقها وغصب الناس على دمائهم وأبنائهم فكان الضحاك يصدر عن رأيه وينخرط فى سلكه ويحذو على مثاله، والعادة مستمرة بقتل رجلين شابين فى كل يوم وإطعام أدمغتهما الحيتين اللتين كانتا بمنكبيه والناس من ذلك ومن سائر الرسوم الفظيعة الشنيعة فى كل بلية وخوف وأذية، وحين تجهز وبرز على أرض جم حتى استولى على ملكه وظفر به وقتله كما تقدم ذكره امتطى سرير الملك وأقام دولة السحر والخبث وأطلق أيدى الأشرار وعم الأرض بالفساد إذ كان شخص الشر وصورة الجور وينبوع الكفر، وقد كان الناس قبل فى كل خير وخصب ومن عدل مَن تقدمه من الملوك الأربعة[1] فى كل أمن ورفق فانتقلوا بملكه من جنة إلى جحيم ومن نعيم إلى عذاب أليم، وكان لا يرى العمارة والإصلاح ويحب التخريب والإفساد، وذكر الطبرى أنه كان رفع إليه شئ من كلام آدم فاتخذه سحراً يعمل به، وكان إذا أراد أن يجلب إليه شيئاً من ممالكه أو أعجبته امرأة أو غلام أو دابة نفخ فى قصبة له من ذهب فكان يجيبه بنفخة ذلك كل مَن يريده فمن هناك ينفخ اليهود فى الشبورات.

ذكر تبديل الطباخين أحد الدماغين

يحكى أنه كان للضحاك طباخان يسميان أرمايل وكرمايل[2] وكانا يتوليان أمر مطبخه بعد إبليس فرقا للشابين المذبوحين من أجل الأدمغة وتواطئا يوماً على أن يعتقا أحد الرجلين المدفوعين إليهما للذبح واستخراج الأدمغة ويجعلا

---

[1]) الملوك الأربعة الذين يبدأ بهم تاريخ الفرس الأسطورى هم: كيومرث «Kiyoomars» – هوشنگ «Hooshang» – تهمورث «Tahmoores» – جمشيد (جم) «Jamshid».

[2]) أرمايل (Armayel) وكرمايل (Garmayel)، تذكر الشاهنامة أنهما من معدن الملوك، وكانا من أصحاب القلوب الطيبة، وأنهما ذهبا للعمل فى مطبخ الضحاك من أجل البحث عن حيلة للتخلص من رسم قتل الناس من أجل الحيتين.

بدل دماغه دماغ شاة ويمزجا بعضهما ببعض فإن تمشى ذلك وتجوز استمرا عليه كل يوم ففعلا ما أزمعاه وأطعما الحيتين الدماغين الممزوجين فسكنتا كالعادة ثم ما زال الطباخان يستحييان كل يوم أحد الرجلين ويغذيانه بشاة ويعتقانه لوجه الله عز ذكره ويخفيانه فإذا اجتمع عشرة من الطلقاء دفعا إليهم أعنزاً وأمراهم أن يتجنبوا البنيان والعمران ويتوغلوا فى المفاوز ويتوقلوا فى الجبال ويتعيشوا بتلك الأعنز، فكانوا يمتثلون أوامرهما حتى اجتمع منهم خلق كثير وتفرقوا فى أقاصى البلدان وسكنوا الصحارى والشعاب، وتناسلوا وتلاقحت وتلاحقت مواشيهم فهم أصول جميع الأكراد فى نواحى البلاد[1]، وكان ذلك الفعل من الطباخين رشاً لماء الخير على نار الشر وتخفيفاً لثقل الخطب.

وبعض الشر أهون من بعض

وذكر الطبرى عن بعض شيوخه أن الضحاك لم يسمع تظلم ظلامه ولم ينصف متظلماً قط إلا مرة واحدة كانت غلطة لصواب، وهى أنه لما اشتدت بليته وتفاقم جوره صار إلى بابه قوم من المتظلمين وفيهم رجل يقال له كابى الأصفهانى[2]، فلما أذن لهم ووصلوا إليه قال له الأصفهانى: أيها الملك، بأى

---

[1]) اختلف المؤرخون فى تحديد أصل الكرد، غير أن الأكراد يقولون بأنهم من أصول هندوآرية، وهذا ثابت عند أكثر الباحثين. وبعيداً عن الأصل الأسطورى، هناك نظريات عديدة حول أصل الكرد، ولكنها نظريات ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها، وبعض المؤرخين يرجع أصل الكرد إلى الهوريين سكان مملكة ميتانى سنة ١٥٠٠ ق.م. ومنهم من يعتبر أن أغلب الأكراد من الميديين، ويركز بعض الأكراد على هذه النظرية من غير دليل أو سند.

[2]) كابى هذا هو نفسه كاوه «Kaveh» الذى تذكر الشاهنامة أنه دخل على الضحاك مستغيثاً متظلماً، ويعد كاوه بداية لعصر جديد فى ملاحم الفرس وأساطيرهم، حيث يبدأ ظهور الأبطال الذين يقومون بمساعدة الملوك وتقدم الصفوف نيابة عنهم، وهو كبير أسرة كبيرة من الأبطال أشهر شخصياتها ابنه قارن.

السلام أسلم عليك؟ أسلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك هذا الإقليم الواحد، يعنى بابل. فقال الضحاك: بل سلام من يملك الأقاليم لأنى ملك الأرض. فقال الأصفهانى: فإذا كنت تملك الأقاليم كلها فما بالنا خصصنا بجورك وعسفك من بين أهل الأقاليم، وكيف لا تقسم المناكير بيننا وبينهم بالسوية. وعدد عليه أشياء كثيرة من رسومه الشنيعة فأثر قوله فى قلبه وأمر بالتخفيف والسوية بين الرعية ثم لم يلبث إلا مديدة حتى عاد لعادته السيئة فى الظلم واستمر على غلوائه فى العسف.

ذكر الرؤيا الهائلة التى رآها الضحاك

بينا الضحاك نائم ذات ليلة بين حظيتيه ابنتى جم[1] على سرير الذهب إذ رأى فى منامه كأن ثلاثة نفر يدخلون عليه فى قصره فيضربه أحدهم بعمود رأسه كرأس الثور ويصرعه على وجهه ثم يسل سكينه فيقطع به من جلد الضحاك وتراً ويشده من قرنه إلى قدمه ويحمله إلى جبل دنباوند فيحبسه فى بئر هناك فانتبه الضحاك فزعاً جزعاً، وصاح صيحة منكرة استيقظ لها جميع أهل داره، فقالت له حظيتاه: يا ملك الأرض مالك وما دهاك حتى ارتعت كل هذا الارتياع فى قصرك ومجمع أهلك وخدمك وأنت أنت، فقال: لا تسألانى فإنى إن أخبرتكما بما رأيت فى منامى كنتما أشد روعة ولوعة منى. فألحتا فى الاستخبار عليه وأذرتا دموع التضرع بين يديه، وقالتا: أخبرنا أيها الملك برؤياك فلعل عندنا حيلة لدفع شرها وضرها فقص عليهما ما رآه. فقالتا حسناً وسكنتا منه وقالتا: لا ترع فأكثر ما يخاف لا يكون، والرأى أن تجمع الكهنة والمنجمين

---

[1]) هما شهرناز «Shahrnaz» وأرنواز «Arnavaz»، وقد اتخذهما الضحاك محظيتين بعد أن قضى على جمشيد، ويدل طبيعتهما الطاهرة بسحرة وشره، وعلمهما السحر وسوء الطبع، ولكن أفريدون استطاع تخليصهما من أسر الضحاك، وساعدت كل منهما أفريدون فى القضاء عليه.

وتستفتيهم فى رؤياك وتسألهم عن عاقبة أمرك وتشاورهم فيما لك وعليك ثم تأخذ حذرك وتتحفظ وتتيقظ بجهدك وتعتمد على سعادة جدك. فأعجبه قولهما وسكن إلى كلامهما. فلما أصبح أمر بجمع القوم الذين ذكرتهم المرأتان وأخبرهم بالقصة واستفتاهم فى الرؤيا، وسألهم عما تؤول إليه حاله ويستقر عليه شأنه فاستمهلوه ثلاثة أيام للنظر والتناظر والتشاور فأمهلهم ثم دعاهم فى اليوم الرابع واستنطقهم فجعلوا يلجلجون ويجمجمون ويكنون ويعرضون ولا يصرحون، فاستشاط غضباً وطار شفقاً وأمر بضرب أعناقهم إن لم يبطوا عن القرحة ولم يدلوا على الحقيقة، فقام إليه رجل منهم وقال: أيها الملك إنك قد شارفت طلاع ألف سنة فى ملك الأرض وبلغت ما لم يبلغ أحد قبلك من العلو والارتفاع والبسطة والاستمتاع، ولا خلد لبشر وكل مولود ميت وكل مُلك زائل، وقد دلت رؤياك والطالع على ما يرق وجهى عن ذكره. فقال: أخبرنى به ويلك. فأخبره بهلاكه على يد غلام من أهل بيت الملك لم يولد بعد، ومصير ملكه إليه وملئه الأرض عدلاً كما ملأها الضحاك جوراً. فأمر بإخراج لسانه إلى قفاه، وأظهر ترك المبالاة بقوله وأضمر من كامن البلبال ووسواس الهموم ما كاد يأتى على نفسه، ثم إنه لم يزدد إلا شراً وتجبراً وجوراً، وأمر بنصب العيون ووضع الأرصاد على كل مولود يولد من أهل بيت الملك وأخذه من حجر أمه وذبحه كما يذبح الحمل فى وقته، وكانت امرأة رجل اسمه آبثين من ولد طهمورث[1] حبلى تخفى حملها، فلما ولدت غلاماً سماه أبوه أفريدون ونقله فى ضمان

[1]) تهمورث، ويقال طهمورث، هو ثالث ملوك الفرس الأسطوريين طبقاً لما ذكرته الشاهنامة، وينسب إليه الفرس بناء العديد من المدن، وكانت مدة ملكه ثلاثين عاماً. ويلقب تهمورث بـ(ديوبند) أى مقيد الشياطين، لأن الشياطين والجن اجتمعت على مخالفته واحتشدوا لمحاربته فانتصر عليهم وأوثق بعضهم بالرقى والسحر واستذلهم، فطلبوا منه الأمان على أن يعلموه بعض الأمور كالخط والكتابة على ثلاثين نوعاً من الألسنة.

الاحتياط مع بقرة له نتجت واسمها كاو برمايون[1] إلى بعض الرياض العازبة الغامضة، ووكل بهما عجوزاً تراعيهما، فكانت البقرة ترضعه والعجوز تتعهده، فلما جاوز الفطام نقله أبوه إلى جبل شامخ، واحتال فى الاحتياط عليه كل حيلة، ورد البقرة إلى منزله، واشتد بحث الضحاك عن أفريدون وتواترت عليه الروايات فى شأنه فطلب أباه به، فلما لم يسلمه أمر بقتله وذبح البقرة التى أرضعت أفريدون، ورسم تخريب داره[2]، وطلب أفريدون تحت كل حجر ومدر وهو فى حرز حريز، ينمو نماء الهلال وعليه واقية باقية من ربه.

ذكر آخر أمر الضحاك وأول أمر أفريدون

لما اشتد البلاء على الناس من الضحاك وبلغت قلوبهم الحناجر وعظمت عليهم المصائب فى أبنائهم المذبوحين من أجل الحيتين جعلوا يتربصون به الدوائر فيدعون الله عليه ويتسلون ويتعللون بما يرجون من الفرج فى خروج أفريدون الذى بشرت به الآثار وتظاهرت بملكه الأخبار، وكان رجل حداد يقال له كاوه قد فجع بأحد ابنيه لطعمة الحيتين وأخذ ابنه الباقى ليذبح فمزق ثيابه وطرح التراب على رأسه وصاح واستغاث وجعل الجلدة التى كان يغشى بها ركبتيه عند الضرب فى الحديد المحمى على رأس خشبة واستنفر الناس[3]،

---

[1]) تسمى هذه البقرة فى الشاهنامة باسم «برمايه» أى العزيزة أو الغالية أو الجليلة.

[2]) تذكر الشاهنامة أن أم أفريدون هى التى تولت أمر إخفاء ابنها وإبعاده عن أعين الضحاك الذى قتل أباه، وتسمى هذه المرأة «فرانك»، وهى التى أعدت أمر هروب أفريدون وليس الأب.

[3]) عرفت هذه الراية فى التاريخ الإيرانى بالدرفش الكاويانى أو الكابيانى نسبة إلى كاوه. يقول الفردوسى فى شاهنامته عن هذه الراية: " وبتلك الجلدة الزهيدة الحقيرة ظهر صوت العدو من الصديق، وكان الرجل البطل يسير فى المقدمة وتجمع عليه جيش ليس بالقليل، ولم يكن هو نفسه يعلم أين يكون (فريدون). لكنه رحل وكان يسير مباشرة حتى جاء إلى بلاط القائد الجديد، ورأوه من بعيد، فارتفع الصوت كالرعد، وعندما رأى ذلك المظيم تلك الجلدة على الرمح اعتبرها فأل خير، فزينها بالديباج الرومى، ورصع رقعتها بالجواهر، وزينها بالذهب، ورفعها الملك فوق رأسه

وقال: من أراد هلاك هذا الكافر الفاجر وملك أفريدون الفاضل العادل فليتبعني وليصل جناحي. فتبعه خلق كثير ولبسوا الأسلحة ونصبوا الأعلام ونفروا خفافاً وثقالاً، وتزايدوا وتعاضدوا وانضم إليهم الرؤساء والكبراء فارتفعت الصيحة ووقعت الواقعة فانخزل الضحاك وهم بالركوب في حاشيته للإيقاع بهم وإطفاء نائرتهم فكع وجبن عن ذلك وتخاذلت قواه وأمر برد ابن كاوه إليه وكان يسمى قارن فلحق بأبيه وصار معه وزحف القوم من فورهم إلى المكان الذى كان فيه أفريدون مختفياً فأبرزوه، ووقعت أعينهم منه على بدر في صورة رجل وملَك في صورة مِلك فخروا له سجداً، وأثنوا عليه وضمنوا له بذل المهج بين يديه إلى أن يظفر بالضحاك ويدرك فيه الثأر المنيم ويقعد مكانه فارتاح أفريدون، وقال: ذلك ما كنت أبغي. وحمد الله وشكره وأخذ للأمر أهبته، ودعا بالقيون وأمرهم بصنعة العمود المعروف بكرزكاوسار[1] الذى الذى وجد ذكره في الأخبار ومعناه بالفارسية العمود الذى في رأسه صورة ثور، ثم إنه ركب في القوم المنضمين إليه، ونصب كاوه رايته بين يديه وساروا في الأسلحة إلى قصر الضحاك وقتلوا من ببابه من الحرس والأعوان وكبسوه وهجموا عليه، ووصل إليه أفريدون ومعه كاوه وقارن فضربه بالعمود الذى تقدم ذكره، وجعل الله

كهالة القمر، واعتبرها فألاً ميموناً. كانت الألوان الصفراء والحمراء والبنفسجية تشع منها، وكان يطلق عليها الدرفش الكاوياني. ومنذ ذلك الحين، وكل من نال العرش ولبس التاج من أجل الملك أضاف الجواهر أولاً بأول إلى جلده الحدادين الزهيدة تلك. وهكذا صارت راية الملوك من الديباج الثمين والحرير، فكانت الشمس في الليل المظلم، وكان قلب الدنيا مليئاً بالأمل منها ".

[1]) المقمعة من أكثر الأسلحة التي يستخدمها الأبطال في الشاهنامة، واسمها بالفارسية: گرز، وأشهرها مقمعة أفريدون التي صممها بنفسه وأرشد الحدادين إلى طريقة صنعها، واستخدمها في محاربة الضحاك. وهناك أيضاً مقمعة رستم الشهيرة التي ورثها عن أبيه وأجداده، وكانت سلاحه المهم في كل المواقع. وتستخدم هذه المقامع المصنوعة برأس على شكل بقرة أو ثور في تحطيم رؤوس الأعداء.

تأويل رؤياه حقاً عليه، وقطع أفريدون من جلده وتراً وشده به وحمله إلى جبل دنباوند[1] وحبسه فى بئر هناك. وفى بعض الروايات أنه قتله وقال له الضحاك إنما تقتلنى بجدك جم، فقال له أفريدون: إنك إذاً لعظيم الشأن ولكنى أقتلك بفقرة كاوبرمايون. وممن تمثل أفريدون والضحاك فى شعره أبو تمام حيث قال من قصيدة:

مـا نال ما قد نـال فرعون ولا	هـامان فى الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحاك فى سطواتـه	بالعـالميـن وأنـت أفريـدون

وفى أكاذيب المجوس وكبائر محالاتهم أن الضحاك بعد فى الأحياء بجبل دنباوند، وأنه من المنظرين كابليس إلى يوم الوقت المعلوم[2].

---

١) جبل دباوند: بفتح أوله ويضم وبعد الواو المفتوحة نون ساكنة وآخره دال ويقال دنباوند أيضاً بنون قبل الباء ويقال دماوند بالميم أيضاً. وهو أعلى جبال إيران، ويقع بين الرى وطبرستان.

٢) لم تكن المصادر الإسلامية بعيدة فى هذا الشأن عن ذكر ما لا يقل عجباً وغرابة عما ذكر فى أسطورة الضحاك نفسها، ومن ذلك ما ورد في كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي، ونصه كالتالي: " ذكر محمد بن إبراهيم أن الأمير موسى بن خضر كان والياً على الرى إذ ورد عليه كتاب من المأمون بن الرشيد يأمره بالشخوص إلى هذا الجبل وتعرف حال المحبوس به. قال: فوافينا حضيض الجبل وأقمنا به أياماً لا نرى الاهتداء لصعوده، حتى أتانا شيخ مسن طاعن وهو ذو همة عالية، فسألنا، فعرفناه أمر الخليفة فقال: أما هذا فلا سبيل إليه أصلاً، وإن أردتم صحة ذلك أريتكم عياناً ! فاستحسن الأمير موسى كلامه وقال: هو القصد. فعند ذلك صعد الشيخ بين أيدينا ونحن فى الأثر فأوقفنا على موضع فبالغنا فى حفره حتى انكشف لنا عن بيت منقور من الحجارة وفيه تمثال شخص على صورة عجيبة، يضرب بمطرقة على أعلاه ساعة بعد ساعة من غير فتور، فاستخبرنا الشيخ عن شأنه، فقال: هذا طلسم موضوع على بيوراسف الضحاك المحبوس ههنا لئلا ينحل من وثاقه؛ ثم أمرنا أن لا نتعرض للطلسم وأن نرده إلى ما كان عليه ففعلنا، ثم دعا بسلاسل وسلالم طوال فربط بعضها إلى بعض بالحبال وكلبها من أسافلها وأوساطها وأوقفها فارتفعت مقدار مائة ذراع ونقب موضعاً على رأس السلالم فظهر باب من حديد

عليه مسامير كبار جداً مذهبة الرؤوس، فوصلنا إلى عتبة فوجدنا على الأسكفة كتابـــة بالفارســـية كأنما كتبت الآن بالذهب مدهونة بأدهان التأبيد تنطق الكتابة عن كلام معناه أن على هذه القلة سبعة أبواب من حديد، على كل مصراع منها أربعة أقفال من حديد، وعلى العضادة مكتوب: هذا ســـجن لهذا الحيوان المفسد وله أمد ينتهي إلى غاية فلا يتعرض أحد إلى هذه الأقفال بمكروه، فإنه متـــى فتح أقفالها ولو قفلاً واحداً هجم على هذه البلاد آفة لا تندفع أبداً. فقال الأمير موسى: لا أتعــرض لشئ حتى أستأذن أمير المؤمنين فجاء الجواب برد البيت إلى ما كان وترك ذلك على حاله ".



زال والعنقاء وروداية



تمجد الأساطير الإيرانية ذكر كثير من الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل بلادهم وملوكهم، بل تعلى من قدرهم فى أوقات الحروب على قدر الملوك أنفسهم. وينتمى زال إلى أسرة من أعظم أسر الأبطال فى الأساطير الفارسية على الإطلاق، وهى أسرة سام (Sam)، تلك الأسرة التى حمل أفرادها على أكتافهم عرش إيران، وكانوا سنداً وعوناً لملوكها فى كل الحروب والأزمات طوال قرون. وزال «دستان» (Zal) هو ابن سام بن نريمان بن گرشاسب. يعرف هذا البطل فى الشاهنامة بـ «زال» و«دستان»، الأول لبياض شعره كالشيوخ والثانى لمكر أبيه به وإبعاده إياه إلى جبل ألبرز.

لم يُذكر هذ البطل فى الأفستا، ولكنه يذكر عادة فى النصوص البهلوية باسم دستان، ويأتى اسمه مقروناً باسم ابنه البطل «روت ستخم» أو «رستهم»

(رستم). كما أنه يعرف في المتون القديمة باسم «زال زر» وزال وزر كلاهما بمعنى الشيخ.

ويذكر الفردوسي في شاهنامته أن زالاً عاش ما يقرب من ألف سنة، كان فيها مستشار الملوك وصاحب الرأي والمشورة في كل ما يحدث في إيران والملاذ الذي يلجأ إليه ملوك إيران وأبطالها في الأحداث الجسام.

وترتبط أسطورة زال بالعنقاء التي تلعب دوراً مهماً في المحافظة على حياة زال ورعايته وهو طفل رضيع، وتتدخل في إنقاذ حياة رودابه (روذابه) زوجته عند ولادتها لرستم ثم مساعدة رستم في حرب إسفنديار. والعنقاء طائر أسطوري، يسمى بالفارسية «سيمرغ»، أي ثلاثين طائراً. ومسكنه على قمة جبل قاف، وهو مخلوق عجيب خارق للعادة في الأساطير الفارسية.

وتحكي أسطورة زال والعنقاء قصة ذلك البطل منذ ميلاده إلى ميلاد ابنه رستم. فقد جاء في الأساطير الإيرانية أن (سام بن نريمان) سأل الله أن يرزقه ولداً، فولدت امرأته طفلاً جميلاً غير أنه كان أبيض شعر الرأس والحاجب كشيخ طاعن في السن، فظن أن ذلك من غضب الله عليه، فأنف من الطفل وأمر به فحمل إلى جبل شاهق ليقضي الله فيه ما هو قاض، فرأته العنقاء (السيمرغ) فاحتملته ونقلته إلى مكان وكرها وربته مع أفراخها إلى أن بلغ سبع سنين، فرأى سام في المنام من أخبره بحياته ودله على مكانه، فتوجه في طلبه حتى وصل إليه وعرفت العنقاء أنه أبوه فردته إليه، وزودته من ريشها ما يحرقه إذا نابته نائبة فتغيثه عندها. ثم يعشق زال رودابه ابنة الملك مهراب، ويتزوجها، وتحمل رودابه وتلد رستم بعد الاستعانة بريشة العنقاء.

والنص الذي اخترناه لأسطورة زال والعنقاء من ترجمة البُنداري لشاهنامة الفردوسي، والبنداري كما يتضح من الإشارات المتفرقة التي جمعها الدكتور

عبد الوهاب عزام من ثنايا ترجمته للشاهنامة هو قوام الدين الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى. نشأ فى أصفهان وتربى بها، وقدم إلى الشام ولحق بالملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، ولم تكن الشام دار مقام له، بل كان يقيم فيها انتظاراً لكمال ترجمته ونيل مكافأة السلطان. والبندارى أديب شاعر، كما أنه فقيه، يدل على ذلك تلقيبه بالفقيه الأجل فى أثناء الكتاب. وهو مؤرخ، قام باختصار تاريخ السلاجقة الذى ترجمه عن الفارسية عماد الدين الأصفهانى.

أما ترجمة الشاهنامة التى ننقل منها نص أسطورة زال والعنقاء فهى ترجمة قام بها البندارى بين جمادى الأولى سنة ٦٢٠هـ وشوال سنة ٦٢١هـ فى مدينة دمشق، وهى ترجمة غير كاملة لحذف المؤلف كثيراً من الأجزاء التى اعتقد أنها لا فائدة منها. يقول محقق الكتاب الدكتور عبد الوهاب عزام: " إذا أخذنا نسخة من نسخ الترجمة لنقيسها بالأصل فنسخة طوپ قپوسراى فيها زهاء ١٨٥٠٠ سطر، ومعدل كلمات السطر عشرة. فإذا فرضنا أن كل سطر منثور يترجم بيتين من الشعر دون إجحاف بالمعنى ففى ترجمة البندارى ٣٧٠٠٠ بيت من الشاهنامة. وقد تقدم أن الكتاب بين خمسين ألفاً وستين. فإذا فرضناه خمسة وخمسين ألفاً فقد اختصر المترجم زهاء ثلث الكتاب ". والنص المختار على اختصاره يحتوى على العناصر الكاملة للقصة، ويمكننا من الاطلاع عليها كاملة فى صفحات قليلة بعيداً عن التفصيل الكبير فى الأحداث، كما أنه صورة من أسلوب المترجم البسيط غير المتكلف، ولغته التراثية المناسبة لجو الأسطورة.

وأسطورة زال والعنقاء، كما سيأتى فى النص، تتناول قصة البطل زال منذ ميلاده وحتى ميلاد ابنه رستم، والشخصيات المهمة فى هذه الأسطورة هى شخصيات: زال، سام، منوچهر (Manoochehr)، رودابه (ويقال لها

روذابـه)، مهـراب، سـيندخت (Seendokht). وجـاء نـص الأسـطورة تحـت العناوين التالية:

- ولادة زال وابتداء أمره
- قصة دستان وابنة مهراب
- انكشاف حال روذابه عند أمها وأبيها
- إرسال مهراب زوجته سين دخت
- وصول زال إلى حضرة منوجهر
- المسائل التى سئل عنها زال وما ذكر فى جوابها
- رجوع زال إلى أبيه ونهوضهما إلى كابل للعرس
- ذكر ولادة رستم بن دستان.

أسطورة زال والعنقاء

ولادة زال وابتداء أمره

كان سام بن نريمان بهلوان[1] العالم فى عهد منوجهر[2]. وكان يبتهل إلى الله تعالى أن يرزقه ولداً يكون قوة لظهره، وقرة لعينه، وكانت له جارية فحملت منه. فلما أخبر بذلك شكر الله تعالى، ولم يزل يعد الليالى والأيام منتظراً طلوع صبح ما ارتجى وحصول ما أراد وابتغى. فولدت ولداً ذكراً كأنه القمر إضاءة غير أن شعره كان أبيض يشتعل شيباً كرؤوس المشايخ الطاعنين فى الأسنان. فبشر سام بذلك. فلما رآه على تلك الهيئة استقبحه، ونفر عنه طبعه، ورفع رأسه إلى السماء وجعل يدعو الله تعالى ويبتهل إليه، ويظن أنه لمعاصيه وذنوبه ابتلاه الله فى ولده بتلك الهيئة القبيحة. وأمر به فأخرج إلى جبل ألبرز، وهو جبل عظيم من جبال الهند[3]، وأصعد به إلى ذلك الجبل، وترك فى بعض شعفاته

[1]) بهلوان كلمة فارسية بمعنى البطل، وبهلوان جهان بمعنى بطل العالم، وهو اللقب الذى يطلق فى الأساطير على أكبر أبطال إيران فى عصره.

[2]) يسمى بالفارسية منوچهر، وهو الملك السابع فى ترتيب الشاهنامة للملوك الأسطوريين، وتزعم الشاهنامة أنه ابن بنت إيرج بن أفريدون التى زوجها لابن أخيه پشنگ، وكانت مدة ملكه مائة وعشرين سنة. ومما ينسب إليه غرس البساتين وتسويرها وحفر الخنادق وصنع آلات الحرب وحفر نهر الفرات وروافده وسن نظام الدهقانية.

[3]) يقصد أنه متصل ببلاد الهند.

وحيداً. وكان على رأس الجبل معشش العنقاء[1]. وكانت تطير في طلب الرزق لأفراخها، فرأت ذلك الصبي في مثل ذلك الموضع، فألقى الله تعالى في قلبها محبة منه فجاءته ورفرفت بجناحها عليه، ثم حملته وحلقت به إلى رأس الجبل، ووضعته بين أفراخها. فكانت تربيه مع أولادها حتى طالت عليه المدة في قلة ذلك الجبل، وترعرع بين أفراخ العنقاء في شعفة الجبل فقضوا العجب من ذلك وتحدثوا به. حتى بلغ الخبر إلى سام. ورأى هو أيضاً في منامه ليلة كأن رسولاً جاء على فرس كالبرق الخاطف فأعلمه أن ولده على بعض الجبال فانتبه وأحضر الحكماء والمعبرين وسألهم عن حال رؤياه. فعبروها على أن الله تعالى لما رأى جفاءك على ولدك حين أبعدته ونفيته وطرحته على بعض الجبال وحيداً فريداً تعطف برحمته عليه فرباه ووقاه، وهو حي يرزق. فتوجه إلى الجبل وتضرع إلى الله وتب إليه فإنه يرد عليك ولدك. ففعل ذلك وأقبل على تلك الجبال يدور في مخارمها وشعابها وحيداً، ويبكي ويتضرع إلى الله ويسأله أن يرد عليه ابنه. قال: فألهم الله العنقاء أنه إنما يدور في هذه المخارم والشعاب لطلب ولده ذلك. فحلقت نحوه، وكانت سمته « دستان »، وقالت: إن أباك قد جاء، وهو يدور في هذه الجبال محترق القلب، منسكب الدمع عليك. وقد ربيتك مثل أفراخي، وأنت أعز علي من روحي. وأرى لك أن أحملك بين جناحي إلى أبيك، فإنك ستصير ملكاً من الملوك، ويعظم شأنك بين الخلق. وأنا أعطيك من جناحي ريشة، فإذا حزبك أمر مهم فاحرقها فإني سأحضر للوقت وأقضي حاجتك. فحملته وحلقت به ثم رفرفت حوالي سام، ووضعته بين يديه، فرأى شخصاً قد أفرغ في قالب الجمال، رشيق القد كالغصن المائل، صبيح الوجه كالبدر الكامل. فخر ساجداً لله تعالى يعفر وجهه في التراب، ويشكره على ما أكرمه به من رد

---

[1]) العنقاء هي طائر السيمرغ في الأساطير الفارسية.

ولده وقرة عينه عليه. وعاهد الله تعالى وأشهده على نفسه ألا يوحش بعد ذلك قلبه، ولا يضيق صدره. وأطلق لسانه بالثناء على العنقاء لحسن صنيعها مع ولده. ثم انحدر به من ذلك الجبل كالليث المشبل. وكساه قباء فكان ملأه رونقاً وبهاء وعزاً وسناء. فلما رأى العسكر ساماً قد أسهل مع ابنه دستان رفعوا أصواتهم بالبشارات، وكاد الطرب يسلب عقولهم، وأقبلوا راجعين إلى المدينة بالدبادب والبشائر. فاستفاضت بذلك الأخبار حتى بلغ الخبر إلى حضرة منوجهر. فأنفذ ابنه نوذر[1] إلى سام للتهنئة بما يسر الله له من رجوع ولده إليه. وأمره بالركوب مع دستان إلى الحضرة في أسرع زمان وأقرب أوان. فلما وصل نوذر إلى سام خرج مبادراً وخيم بظاهر البلد فنجز أموره، ورتب أسبابه، ونهض مع دستان متوجهاً نحو الحضرة. فلم يزل يصل السير بالسرى حتى وصل إلى مستقر سرير السلطنة. فخرج منوجهر لاستقباله في مواكب جنوده، تحت أعلامه وبنوده. فلما رأى سام درفشه الميمون ولواءه المنصور ترجل إجلالاً، وقبل الأرض إعظاماً وإكباراً. فأوسعه الملك براً وإلطافاً، وأمره بالركوب. فسارا إلى دار المملكة، وجلس على سرير الذهب، وأجلسه عن يمينه، وأجلس قارن عن يساره. وأمر الحاجب الكبير بإحضار دستان. فخرج وأخذ بيد دستان وأدخله على الملك مشدود الخصر بمنطقة مرصعة باليواقيت، معصوب الرأس بإكليل من الذهب، على كاهله جرز كقطعة من الجبل. وكأنه يحكي بذلك الرأس الأبيض والوجه الأزهر، تحت إكليل الذهب الأحمر، صورة القمر بعد التسع والخمس، متوجاً بعين الشمس. فملأ عين الملك بشكله وشمائله، وما لاح

---

[1]) نوذر (Nozar) بن منوجهر، ثامن ملوك الشاهنامة، وهو أول ملك خائر، ولم يكن يهتدى إلى مسالك العدل والإحسان. وتذكر الشاهنامة أنه خالف سنة أبيه، ومد يده بالظلم إلى رعيته، وانشغل باللهو واللعب، ولم يكن يحسن معاملة الأمراء والأجناد، وخرجت عليه جنوده، وكاد يفقد عرشه لولا تدخل البطل سام بينه وبين القادة والأمراء.

فيه من أمارات العز ومخايله. ففرح بلقائه وشكر الله تعالى على ما رزقه من الاكتحال بوجهه، والاستظهار به ليومه وغده، وقربه من بساطه ومسح عينه ووجهه بيده. ثم أقبل على سام واستخبره عن أحواله وكيفية استنزاله من معشش العنقاء وشعفات تلك الجبال. فسرد لديه حكايته من أول ميلاده إلى يومه ذلك.
فلما سمع الملك ذلك أمر بإحضار المنجمين وسايلهم عن طالع دستان وما قدر الله له من المقامات، وكتب على يده من الوقائع. فنظروا فى ذلك وتدبروا ثم جاءوا إلى الملك مبشرين بسعادة طالعه، ويمن نقيبته. فسر الملك بذلك وأمر لهم بمال عظيم. ثم قال لسام: هذا وديعتى عندك، وهو على أعز من إحدى عينى. وشرط عليه أن يعلمه بمكارم الأخلاق وآداب الملوك ومراسمهم فى حالتى الحل والترحال، والسلم والقتال. ثم أمر له بخلعة راقت العيون وشرحت الصدور، من الديباج المنسوجة بالذهب والمرصعة بالجواهر الثمينة، بأطباق من اليواقيت واللآلئ، وعدد من الخيول العتاق، وجماعة من روقة الغلمان الرشاق. وعقد له لواء عظيما، ووقع له بجميع ممالك الهند والسند وما والاهما من الممالك. فتوجه إلى تلك الولايات فى مواكب العز والإقبال، وكواكب المجد والجلال. فاستقر بها على سرير الملك ينهى ويأمر حتى استنهضه الملك فى بعض المهمات السانحة، وهو استخلاص مملكة مازندران التى استولى عليها بعض العتاة المعاندين والعداة المارقين. فدعا بابنه دستان واستنابه فى مملكته، وأمر أركان دولته وأعيان حضرته بالتوفر على خدمته وإقامة مراسم طاعته. وأمر الوزراء والنصحاء ومن ندبهم لمنادمته ومجالسته من الكفاة الأذكياء والعلماء الأتقياء بتحريضه على مكارم السير، وتأديبه بمحاسن الشيم. ثم أذن له فى الطرد والصيد متوجهاً حيثما أراد من أطراف المملكة. فودعه وانحدر على مقتضى الامتثال إلى أرض مازندران لما ندب له من استخلاص تلك الممالك وقتال من استولى عليها من المخالفين المعاندين.

قصة دستان وبنت مهراب

قعد دستان مقعد أبيه ينهى ويأمر، ويورد ويصدر. ثم إنه نهض متصيداً إلة قرب أراضي كابل. وكان لتلك البلاد ملك يسمي مهراب. فلما سمع بقرب دستان منه ركب إلى حضرته للخدمة، واستصحب من طرائف الجواهر ونفائس ما يليق أن يتحف به مثله من الملوك. فقبله دستان أحسن قبول، وقابله بأتم إحسان وإكرام. وكان مهراب ذا صورة عجيبة تستوقف الألحاظ وتستتبع الأحداق، من شطاط قامة، وحسن وجه، ولين معطف، وأبهة جلالة، وطراوة منظر، وعذوبة منطق. فلما قام من حضرة دستان وخرج أقبل على أصحابه وندمائه، وقال ما أحسن هذا الشاب. وإنه قد ملأ قلبي بمحاسنه وشمائله، وكأنه ما ولد قط مثله. فلم يزل يكرر هذا الكلام ونحوه حتى قال له بعض الندماء إن وراء حجابه بنتاً كالشمس الطالعة. وقد خلقت من طينة الجمال، وأفرغت في قالب الكمال.

بيضاء تسحب من قيام فرعها	وتغيب فيه وهو وحف أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع	وكأنه ليل عليها مظلم

فاستهام بها دستان، وشغفه حبها حتى ملك الغرام عنان قلبه، واستلبه زمام عقله. وجعل يتجلد ويخفى ما يجن ويضمر. فأبت لواعج همومه إلا الاشتعال، وسوابق عبراته إلا الانهمال. نعم ولما أصبح مهراب جاء إلى باب سرادقه للخدمة، فبادر الحجاب ورفعوا دونه الحجب حتى دخل على دستان، فتهلل في وجهه، وتلقاه بأريحيته، ولاطفه في الكلام، وأمر برفع حوائجه، ووعده بإنجاح مطالبه، وإنجاز مآربه. فقال مهراب: إن حاجتي أن يتجشم الملك حضور منزلي لينوره بإشراق طلعته مشرفاً عبده بذلك. فقال: أما هذا فلا سبيل إليه بدون أمر الملك سام. واعتذر إليه، وخلع عليه. ورده إلى داره على جملة تسر قلوب مواليه، وتسخن عيون أعاديه. فلما عاد مهراب إلى داره سايلته زوجته عن

دستان وصورته وشكله وحاله بمحضر من ابنته، وكانت تسمى روذابه فطفق مهراب يصفه ويذكر ما أعطاه الله من الصورة الجميلة والشمائل المعسولة، والمنظر البهي، والرواء الأنيق. وقال: غير أن رأسه أبيض كالكافور، يرف شعره وارداً على عارضيه كأوراق الأقحوان على شقائق النعمان. فكأنه لا يصلح لحمرة وجهه غير بياض شعره، ولا لبياض شعره غير حمرة خده. فجعلت روذابه تسمع ذلك بمجامع قلبها حتى أثرت تلك الصفة فيها فتغير وجهها، واصفر لونها. وما أحسن ما قال بعض الحكماء: لا تصفوا محاسن الرجال لربات الحجال فإنها تعلق بقلوبهن، وتأخذ من نفوسهن، وتفتح عليها مكامن الشيطان، فلا يكون للعقل بمقابلتها يدان. فعشقته روذابه، وحالفتها الأشجان حتى ملك الهوى عنان اختيارها، وفجعها بنومها وقرارها. ولما عادت إلى بيتها ضاقت ذرعاً عن كتمان سرها. وكان لها خمس جوار يخدمنها ويحضنها مختصات بها. فأفضت إليهن بمكنون سرها ومخزون أمرها، وأخبرتهن بما تقاسيه من لواعج الحزن ولوافح الحب. فأنكرن ذلك عليها، وأطلقن ألسنتهن بالتوبيخ والتعنيف، وأخذن يخوفنها سطوة مهراب، ويذكرن لها شدة غيرته على الحرم. فخنقتها العبرات وتصعدت من صدرها الزفرات. ثم أقبلت عليهن وقالت: قد فنى منى الاصطبار، وخرج من يدى الاختيار.

لم يُبق لى الشوق لا صبراً ولا جلداً   فليصبرن خليّ يملك الخلدا

فصارت لا تستأنس إلا بوصفه، ولا تستريح إلا إلى ذكره. فلما أبصرن ذلك طفقن يعللن قلبها ويقلن: إنا سنتدبر فى شأنك وسنجمع بينه وبينك. وكان معسكر دستان قريباً من قصرها، فلبسن وشائع الحلل، وتبرجن للألحاظ والمقل، وأخذت كل واحدة منهن على يدها طبقاً من ذهب، وصرن إلى بستان قريب منه على شط نهر، وجعلن يجتنين الورد والياسمين وأنواع الرياحين، وينضدن ما يجتنينه

على الأطباق. وذلك بمرأى من دستان. فأبصرهن من تحت السرادق وسايل عنهن، فقيل وصائف خرجن من قصر مهراب إلى هذا البستان، يجتنين الورد والريحان. فدعا بالقوس والنشاب وقام يتمشى بين تلك الرياض ومعه جماعة من صغار الغلمان الحصارية، فلما قرب من الماء أزعج طيراً ورماه بنشابة فوقع الطير إلى ذلك الجانب من الماء، وبين أشجار الورد والياسمين، عند الجوارى المذكورات. فأمر بعض الغلمان بالعبور إلى ذلك الجانب وأخذ الطير. فلما عبر الغلام إلى البستان سايلته إحداهن عن الشاب، فقال الوصيف: هذا ابن ملك الهند، وهو كما ترين يروق للعيون جمالاً، ويملأ القلوب كمالاً. وطالت مسارتهما. فضحكت الجارية وقالت للغلام: إن وراءنا فى الحجاب سيدة كالقمر ليلة التمام. وأخذت تصف صاحبتها له وهو يصغى إلى ذلك. ثم رجع بالطير إلى صاحبه فسايله عن الجارية وعما حاورته فيه. فسرد عليه ما جرى بينهما. فسر بلك حتى توردت صفحات وجنته، وتهللت أسارير جبهته. ثم رد الغلام إلى الجارية وأمرها ألا تبرح من البستان إلا بإذن الملك. ودعا الخازن وأمره فأحضر قطعاً من الجواهر النفيسة فأنفذها على يد ذلك الغلام إلى الجارية، وأمرها أن تحملها إلى صاحبتها، وبأن لا تبرح من مكانها حتى يحملها رسالة إليها. فقالت الجارية: إن كان للملك رسالة فلا يسمعنها غيرى، فإن السر إذا جاوز اثنين لا يبقى مكتوماً، وكان بالإذاعة قميناً. فتجشم الملك النهوض إلى البستان، وخلا بتلك الجارية وباح إليها بمكنون سره، وأخبرها بما انطوى عليه قلبه من حب صاحبتها. ثم رجعت الوصائف الخمس إلى القصر، وبشرت تلك الجارية سيدتها بأن قلب الملك هائم بها، وأن وجده بها فوق وجدها به. وقدمن الجواهر التى أنفذها بين يديها. ففرحت بذلك وسرى عنها بعض همومها. ثم ترددت الجارية بين المتعاشقين حتى تواعدا على الاجتماع. فلما جن الليل جاء دستان ووقف عند أصل القصر. وأشرفت عليه روذابه من بعض شرفاته. قال،

والعهدة عليه: فسدلت قرونها وأشارت إلى أن يتعلق بها ويصعد. فامتنع من ذلك وقبل تلك الضفائر الممسكة، وعلق الوهق وصعد فى أسرع من رجع الطرف. فاجتمعت الشمس والقمر، وطال بينهما الحديث والسمر، وباتا يتشاكيان حر الاشتياق، ويتفاوضان ذكر الفراق، فى مجلس فرش بالديباج والحرير، ونضد بالمسك والعبير. فكانا كما قال الشاعر:

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى ... يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

وبيننا عفة بايعتها بيدى ... على الوفاء بها والرعى للذمم

وأكتم الصبح عنها وهى غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

فلما نفحت نسايم السحر، وتشعشعت تباشير الصبح، وغردت سواجع الأطيار، فى عذبات الغصون والأشجار، قام دستان فودعها فتعانقا وتحالفا على ألا يقرب كل واحد منهما غير صاحبه حتى يجمع الله بينهما بالنكاح. فافترقا على ذلك وجاء إلى مخيمه. فلما طلعت الشمس جمع الوزراء والأمراء وشاورهم وأعلمهم بأنه يريد أن يتزوج بابنة مهراب. فقالوا إنه من أولاد الضحاك. ولا يخفى عليك ما بين البيتين من العداوة والشحناء. ولا يرضى أبوك سام ولا الملك منوجهر بأن يجرى بينكما امتزاج واتشاج. وإن سمعا بميلك إلى هذه المصاهرة احتدما غيظاً وصعب استرضاؤهما وتعذر استعطافهما. فلما سمع ذلك أطرق محزوناً مكتئباً. ثم أقبل عليهم وقال: لابد من إعمال الفكر فى ذلك بما يفضى إلى حصول هذا المقصود. فأشاروا عليه بأن يكتب إلى أبيه ويتضرع إليه، ويعرض ما بلى به من العشق عليه. فلعله يرق قلبه ويتشفع إلى الملك ويتوسل إليه بذرائع عبوديته وشوافع خدمته، ويسأله إذنه فى مصاهرته تلك. فاستصوب هذا الرأى، فأحضر الكاتب وأمره أن يضمخ كافور القرطاس بمسك الأنفاس، ويكتب إلى حضرة ذاك الهزبر الهصور كتاباً يفتتحه بالثناء

على الله خالق الأمم وبارئ النسم. ثم يثني بالدعاء بثبات دوحة الجلال وجرثومة الإقبال، ليث الحفاظ وغيث النوال، مفخر السيوف والأرماح، وفاجع الأشباح بالأرواح. ثم يثلث بما بلى به قرة عينه، وفلذة كبده من شغفه بالمخدرة العربية. ثم يذكره العهود التى أبرمها يوم استنزاله من معشش العنقاء فى إيثار ما يعود بطيب قلبه، ويقضى بخفض عيشه. ثم يستأذنه، بعد الإطناب والإسهاب فى معنى خلوص عبوديته، ونصوع طاعته، فى المصاهرة المذكورة، والمواصلة المطلوبة. فكتب على تلك الجملة كتاباً وختمه بالمسك، وطير به راكباً إلى مازندران إلى حضرة سام. فلما وصل الرسول أخبر سام بمقدمه فقربه من بساطه، فأوصل إليه الكتاب بعد تقبيل التراب، وإقامة شرائط الخدمة. ففض ختامه وقرأه، فأخذه الوجوم، وتناوشته الهموم، ثم أخذ يفكر فى السبيل الموصل إلى ما خامر قلب ابنه من مواصلة آل الضحاك ومصاهرتهم. ورأى أن ذلك مما لا يرتضيه الملك منوجهر. فأحضر المنجمين والحكماء وشاورهم فيما هجس فى ضمير ولده من ذلك، وأنه كيف يجوز الحزم التغافل والتغابى عن الحقود الدفينة والحسائك القديمة. وقال لهم: تدبروا فى ذلك الأمر، واستدلوا بطالعيهما على ما فيه من الخير والشر، واستعينوا على ذلك ببصيرة العقل وقوة الفهم، واستشفوا ستر العواقب، وطالعوا مرآة الغيب بالأراء الثواقب. ثم اعلمونى نتيجة ذلك. وأذن لهم فقاموا والتجئوا إلى الزيجات والتقاويم، وتشمروا للنظر السديد والرأى القويم. حتى وقفوا على الأمر المكنون والسر المخزون. ثم جاءوا إلى باب الملك مبشرين بسعادات دلت المخايل على ظهورها، وآذنت تباشيرها بطلوعها. وأخبروه أن الله أجرى قلم التقدير فى اللوح المحفوظ باقتران السعدين، واجتماع النيرين بتواصل البيتين، وأنه يولد بينهما ولد يملأ الدنيا مهابة وقهراً، وشهامة وفخراً، ويرفع تاج السلطان إلى أوج الكيوان. ويطهر بساط الأرض من أهل البغى والطغيان، وتشتعل به نار ملوك الفرس حتى تمد

باعها إلى ذروة السماك، ويضرب لهم رواق المجد على مفرق الأفلاك. فلما سمع سام ذلك من المنجمين أخذته أريحية الطرب، وتمشت في رأسه نشوة الفرح. فأفاض على أعطافهم الخلع الرائقة وأجزل لهم الأعطية والمنح الوافرة. ثم دعا برسول ولده دستان وأمره بالرجوع إليه. ورد إليه، أنا نتوصل إلى قضاء حوائجك، ونسعى في إنجاح مطالبك. ونهض إلى حضرة السلطان لاستئذانه في إنشاء هذه المصاهرة، وتنجيز هذه المواصلة. وأمر بأن ينادى في العسكر بالرحيل والتوجه إلى مستقر سرير الملك، بعد ما كفاه الله تعالى ما اهتم به من العدو، وأنعم عليه بالظفر والنصر والنجاح والفوز.

انكشاف حال روذابه عند أمها وأبيها

قال: فرجع الرسول إلى حضرة دستان، وأعلمه أن أباه تقبل له بإنجاح المأمول، وإطلاب المقصود. فدعا بعجوز كانت تتردد بينه وبين روذابه، وأنفذها إليها وأصحبها الرسالة التي عاد بها الرسول من عند أبيه. فدخلت عليها وبشرتها بذلك. فتخايلت من الفرح وتهللت من المرح، فأمرت لها بخلعة من القصب منسوجة بالذهب. فلما خرجت من عندها رأتها « سين دخت » أم روذابه. فاسترابت بها، وأمرت بالقبض عليها، واستكشافها عما وراءها. ففزعت العجوز وتعلقت بأذيال الأكاذيب، وتمسكت بأهداب المخاريق. فما وقع ما ذكرته عندها موقع القبول، وأمرت بتفتيش ما اشتمل عليه إزارها. فعثروا على تلك الخلعة الفاخرة. فشددت حينئذ على الخبيثة الفاجرة، وأغلقت جميع الأبواب، وطفقت تلطم الورد بالعناب، وتفض من النرجستين عقود اللؤلؤ المذاب. ودخلت على بنتها وأخذت تخاطبها بلسان اللوم والتعنيف والعذل والتوبيخ على طرحها قناع الحياء، وتدرعها ملابس الفحشاء. وتؤاخذها بإلباس العجوز الشوهاء ملابس الخريدة العذراء. فما أجابتها إلا بالإطراق ورمى

الأرض بالأحداق. فلما طالت مطالبتها لها بإظهار حالها وإعلان سرها تنفست الصعداء، وأسبلت من محاجرها الدماء، وفضت ختام سرها وذكرت لها شغفها بابن الملك، واجتماعهما فى تلك الليلة، وما جرى بينهما من المعاهدة والمحالفة على الازدواج والامتزاج والأخذ فيما يفضى إليه من السعى البليغ والجهد الأكيد. وأخبرتها بأنه قد كتب فى المعنى إلى أبيه سام، وأنه رد إليه فى جواب كتابه أنى أنهض إلى حضرة الملك منوجهر وأستأذنه فى ذلك توخياً لما يرتضيه، وانقياداً لما يبتغيه. فلما سمعت ذلك سين دخت خفضت من غلوائها قليلاً، وكفكفت من طغيانها حتى عاد حده كليلاً لميلها إلى مصاهرة ابن الملك والاتصال به رغبة فيه لمكانه وعلو شأنه. ثم اعتذرت إلى تلك العجوز وطيبت قلبها، وأمرتها بإسبال الستر على ما جرى من الإساءة. ودخلت إلى قصر مهراب واضطجعت فى موضعها تتفكر فى الحادث الكارث، وتتفكر فى عاقبة الأمر ووخامته.

فدخل مهراب فرآها نائمة على غير العادة المعهودة، منزعجة قد تورست صفحات خدها بردع الألم، وترددت فى محاجرها عبرات الهم والحزن. فاستخبرها عن حالها فما أجابت إلا بما نبت عنه مسامعه، واستبعدته ألمعيته. فألح عليها فى إظهار ما انطوى عليه سرها، وبث ما استجنه ضميرها. واستمرت على المدافعة عن إطلاعه على حقيقة الحال، والإفصاح عنها بصدق المقال. فلم يزل يعيد عليها السؤال حتى شرحت لديه الحال. فلما وقف على ذلك مهراب تضرمت نيران غيرته، ووثب كالليث المحرج إلى السيف متوجهاً نحو البيت. فنهضت زوجته وتعلقت به. ثم قالت: إنى أعرض عليك رأياً فإن كان من الصواب قريباً قبلته وإلا مضيت على غلوائك ومقتضى رأيك. فتوقف ساعة. فقالت: إن هذا الأمر قد شاع وإن دستان قد كتب بذلك إلى أبيه سام، ورجع الرسول إليه مخبراً بأنه نهض من مازندران متوجهاً إلى حضرة السلطان

ليستأذنه في الخطبة إليك. وسردت عليه جميع ما جرى من المراسلات والمكاتبات. فلما سمع مهراب ذلك خفض قليلاً، ومال إلى جريان الاتصال بين الدولتين، اعتضاداً للبعض بالبعض من الجانبين.

قال فاطلع منوجهر على الحال وأنهى إليه أن ابن سام يريد الاتصال ببنت مهراب، وأن أباه متابع على ذلك، ومصمم على النهوض إلى حضرته لاستئذانه. فاحتدم غيظاً واستشاط غضباً، وجمع وزراءه وقواده وفاوضهم في ذلك. وقال: أخاف أن يكون تحت الرماد جمر يثور منه دخان. وقد علمتم أن أفريدون كم تجرع غصص المكاره حتى استأصل شأفة الضحاك. وإذا حصل بين ابن سام وبنت مهراب التي هي شعبة من الدوحة الضحاكية تزاوج أمكن أن يحصل بينهما ولد يكون له صغو إلى أمه، فتحدثه نفسه بإحياء بعض سنن البيت، فيتفاقم الأمر ويعضل الداء. والحزم ألا يفتح له طريق إلى هذا، ولا يمكن من السؤال في ذلك المعنى. فاستصوبوا رأيه وأثنوا عليه. فلما قدم سام استقبله على العادة المعهودة، وتلقاه بالإعظام والإجلال والبر والإكرام، وأنزله على جملة الاحترام. فلما كان من الغد جاء برسم الخدمة إلى باب الملك فرفع دونه الحجب، وتلقاه الملك بالبشر والتهلل، وسايله عما قاساه من محاربة شياطين مازندران ومكافحة أسود كركساران[1] وما لاقاه من مقاتلتهم ومعاركتهم. فأخبره بما جرى له من أول نهوضه إلى أن فتح الله عليه تلك البلاد. وذكر له ما تيسر من قتل ملكهم الذي كان من أولاد سلم بن أفريدون[2]. وأعلمه أنه قد صفت

---

[1] كركسار بمعني شبيه النسر، والجمع كركساران، وهو اسم قبيلة في منطقة مازندران.

[2] كان للملك أفريدون ثلاثة أبناء هم: تور«Toor» وسلم«Salm» وايرج« Iraj»، وكان قد قسم بينهم ملكه الشاسع، فجعل إيران لإيرج وتوران لتور وبلاد الروم لسلم، ولكن الغيرة أكلت قلب تور وسلم فقتلا أخاهم الصغير إيرج بسبب تسليم أفريدون حكم إيران له دونهما. وبهذه الحادثة يبدأ العداء والصراع بين الأمم الثلاث في الأساطير الإيرانية، وخاصة بين توران وإيران.

له تلك المملكة وانضمت إلى جملة ممالكه. فلما أنهى حديثه أثنى الملك عليه وشكر سعيه. ثم دعا بآلات مجلس الأنس، واشتغلوا بالقصف والطرب، وتعاطوا أقداح اللهو والفرح. حتى استباحت عقولهم الكئوس، وثقلت من فضلات الراح الرؤوس. استأذن حينئذ سام للقيام، ورجع إلى مضطجعه. فلما أصبح الصبح ركب إلى خدمة الملك ليعرض بذكر ولده زال، ويستأذن له في معنى الاتصال ببنت مهراب. فلما دخل على منوجهر رآه كالمغتاظ محتدماً كالنار. فافتتح وقال لسام: إنا تدبرنا في أمر مهراب وأنه شعبة من تلك الجرثومة الخبيثة ولابد من قلعها واستئصالها. وقد اقتضت آراؤنا أن تنهض لكفاية أمره، واستصفاء مملكته، واستضافتها إلى ما في يدك من ممالك الهند. فلما رأى سام أن الملك قد سد عليه طريق ملتمسه كف لسان سؤاله، وسارع إلى الانقياد، وتشمر لما جرد فقبل الأرض وخرج متوجهاً نحو ممالك الهند. فتناهى الخبر بذلك إلى زال ومهراب، وقامت القيامة على مهراب وأصحابه ويئسوا من الحياة. وضاقت الأرض على زال لأنه كان السبب في إيقاد نائرة الفتنة. وتوقد من الغيظ متنمراً كالثعبان الصائل. حتى قال يوماً: إن مهراب نسيبي وهو معتضد بقوة بأسي وشدة مراسي، ولا يقدر العقاب أن يطير على ساحة مملكته ما دام هذا الرأس على جسدي واستقر هذا الصمصام في يدي. ثم جاء الخبر بمقدم أبيه فخرج للاستقبال في مواكبه. فلما طلعت رايات أبيه ترجل للخدمة، يتلقى الأرض بيده، ويلثم التراب بفيه. فأركبه أبوه وعانقه ومسح بيده غرته. فسار تحت أعلامه حتى نزل في إيوانه. فخلا به في الوقت وأخذ يبث إليه شكوى الحال، وما قاساه مدة مفارقته من الأشواق إليه، ثم ما أصابه من رسيس الوجد وحرقة الغرام. وأذكره معاهدته إياه على مواتاته فيما يطلب ويقترح، ومعاونته فيما يعرض من مآربه ويسنح، وتنكبه عما يعود بضيق صدره، ويقضي بشغل قلبه. وقال: وكأنك الآن لم تقدم من مازندران إلا على ما يوغر صدري ويوحش قلبي ويفجع

بروحى شخصى. لما أنت عليه مصمم من محاربة مهراب، وتخريب دياره وانتهاب خزائنه ورغائبه. فإن كان الأمر على هذه الجملة فها أنا واقف بين يديك، مسلم زمام قيادى إليك، فخذ رأسى أولاً ثم خض فى محاربة مهراب ثانياً. فرق عند ذلك من سام قلبه، ولانت صفاته، وطفق يعلل قلب ابنه بالأمانى. وقال له: إنى أنفذك إلى خدمة الملك، وأكتب إليه كتاباً أستعطفه وأسأله الإنعام عليك بما يفضى إلى إنجاح مآربك، وقضاء حوائجك. فاستحضر الكاتب وأمره أن يكتب مفتتحاً بحمد الله خالق النجم والشجر، ومنور الشمس والقمر، المتصف بالقدم، المسلط على الوجود يد العدم. ومثنياً بالثناء على الملك الجليل ناعش التاج والتخت ومالك الشرق والغرب. ثم قال إنه لا يخفى على آرائه العالية أنى قد طعنت فى السن وتلفعت برداء الشيب، وضعف كاهلى عن حمل أثقال السلاح، ووهت منتى عن إعمال السيف عند الكفاح. ثم أخذ يُدل فى كتابه بحرماته السالفة، وحقوقه الثابتة، ومقاماته المشهورة، ووقائعه المذكورة، ونكاياته فى أعادى دولته ومخالفى كلمته، ويصف ما لاقاه فى محاربة سعالى مازندران وعفاريت كركساران، ويذكر أنه جعل ولده دستان ولى عهده فى عبودية الملك وكفاية ما يحدث من مهم يحتاج فيه إلى قوة باس وشدة مراس، وأنه قد نفذه إلى حضرة الملك حتى يكتحل بالطلعة الميمونة ويمثل فى زمرة العبيد. وبعد ذلك لا يخفى على ألمعية الملك أنه وإن كان بقوة أعضاده يدفع فى نحور الآساد، ويضعضع أركان الأطواد، فهو ربيب الطير. ومن أجل ذلك هو رقيق القلب. وكأنه قد رأى بنت مهراب فملكت قلبه، وسلبته عقله. فهو أسير فى يد الغرام، منفجر الدمع مثل الغمام. نومه غرار، ودموعه غزار. وقد وفد إلى حضرة الملك ملتجئاً إلى عاطفته، ومستعيذاً بظل رأفته. راجياً أن ينعم عليه بالإذن فيما يروم. وختم الكتاب بالدعاء والثناء، ودعا بدستان ودفع إليه الكتاب. وأمره أن يتوجه إلى خدمة الملك منوجهر فركب يطوى الأرض كالبرق

الخاطف، حتى وصل إلى مستقر الملك منوجهر على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى.

إرسال مهراب زوجته سين دخت

لما شاع فى بلاد كابل أن منوجهر أمر ساماً بالنهوض إليها لتخريبها واستصفاء حصونها وقلاعها واستفاضت به الأخبار اهتاج مهراب وطار واقعه، وأقضت مضاجعه، فالتهب مستشيطاً، ودعا بزوجته سين دخت، وشكا إليها ما ابتلى به من شؤم بنتها وقبح فعلها، وأنه بسببها قد ظهر الشر الكامن، وتحرك العرق الساكن. وأوعد بقتلها مع بنتها متوسلاً بذلك إلى استعطاف الملك منوجهر واسترضائه فلعله يكف عن غلوائه، ويمسك عن محاربته، وانتزاع مملكته من يده. فالتجأت إلى إعمال الحيلة، وإجالة الفكر فيما يقضى لها بالنجاة من تلك المصيبة. فنهضت خائفة ترجف أحشاؤها، وباتت بليلة أنقد، تأبى مزعجات الخف أن تغفو وترقد. فلما أصبحت دخلت على زوجها وقالت إن هذا الأمر لابد من تلافيه، ومقتضى الحزم التشمر فيه. فإنه ما عز أمر إلا هان، ولا تصعب ريض إلا استقاد ولان. وكذلك ظلام الليل وإن أرخى سدوله، وسحب على النواظر ذيوله، فلابد من انفراجه بطلوع الصبح وابتلاجه. والرأى أن أنهض رسولاً إلى سام، وأستل هذا الحسام، وأستعطفه وأستلين عريكته، وأطفئ هذه النائرة، وأسكن الفتن الثائرة. وإذا خاطرت أنا بالروح فلابد لك من المساعدة بالمال. فاستصوب مهراب رأيها ورضى لها بالبروز، وسُلمت إليها مفاتيح الكنوز. وأطلق يدها فى جميع تلك الرغائب والذخائر والحرائب. فقالت لا آمن إذا غبت على روذابه من بائقة غضبك وبادرة سطوتك، ولا يمكن خروجى إلا بعد الاستظهار منك بعقود محكمة ومواثيق مبرمة على كف عاديتك عنها. ففعل ذلك. ثم تشمرت للنفوذ فى ذلك وفتحت أبواب الخزائن وأخرجت

ثلاثين ألف دينار برسم النثار، وعشرة من الخيول المذكورة، وثلاثين رأساً غيرها من العراب الجياد، وخمسين وصيفاً كالأقمار الطالعة، مشدودى الأوساط بمناطق الجواهر الرائعة، وستين وصيفة كأنهن ضرائر الحور العين، على يد كل واحد جام مملوء من المسك الفتيق والعنبر السحيق، وأربعين رزمة من الوشائع الرومية والديباج التسترية، ومائة قطعة من السيوف الهندية، والصوارم المشرفية، ومائة ناقة حمر الأوبار هدل الشفاه قوالص الأشفار، ومائة بغلة كأركان الجبال برسم الأحمال، وتاجاً من الذهب محلى بزهر الجواهر، كالشمس المنقطة بالنجوم الزواهر، وتختاً يشبه الفلك الدوار ركبت فيه يواقيت تخطف الأبصار، وأربعة من الفيلة الهائلة التى تضرب وسط الحروب بالأسداد وتزاحم مناكب الأطواد. قال: فلما أعدت استعدت وركبت منطلقة نحو حضرة سام فلم يحس بها أحد حتى حلت بفنائه. فسألت الحجاب أن يعلموا ساماً بوصول رسول من عند ملك كابل. فلما أخبر سام بذلك أمر أن ترفع دونها الحجب. فدخلت وقبلت الأرض، ومثلت بين يديه. وكانت قد أمرت أن تصف الهدايا صفوفاً وبأن يقدم الواحد منها بعد الواحد بين يدى سام. ففعل ذلك وأعجبته تلك التحف بكثرتها وجميل هيئتها. وجعل يتعجب من إنفاذ مهراب إياها على يدى امرأة ويقول فى نفسه: إن قبلت هذه التحف وعلم بذلك منوجهر لم آمن عواقب سخطه. وإن لم أقبلها وسمع بذلك دستان تنمر فطار واقعه وهاج وادعه. فوقع له أن يسلموا تلك الهدايا والتحف إلى خازن ابنه دستان. فلما رأت العقيلة الكابلية أن ساماً أمر بقبول مستصحباتها تهللت فرحاً. وكانت معها ثلاث وصائف على يد كل واحدة طبق مشحون من الياقوت والزبرجد فأمرتهن فنثرنها تحت قدم سام. ثم أخلى المجلس لأداء الرسالة. فتقدمت نحو بساطه، وأطلقت لسانها بالثناء. وقالت: أيها الملك، إنه لا تتعلم مكارم الشيم إلا من أخلاقك، ولا يهتدى إلى طريق المحاسن والمآثر إلا بإشراق أنوارك. وأنت الذى يفرج برأيك رتاج كل

أمر، ويغلق بعدلك باب كل شر. ولا يخفى عليك أن البرئ لا يؤاخذ بذنب المجرم، وأن المحسن لا يقابل بجزاء المسئ المذنب. وإذا أساء الضحاك الذى ذاق وبال ظلمه، واستوخم عاقبة فعله، فأنى تجوز المعدلة الفائضة والرحمة الشاملة أن يعاقب لإساءته مهراب الذى هو غرس نعمتك وتراب قدمك، ولم يسلك منذ تصدى لسلطنة كابل غير طريق طاعتك ومنهج عبوديتك. نعم وإن كان قصد الملك لبلاده من أجل الدين فإن إلهنا وإلهكم واحد، لا خلاف بين الطائفتين فيه. غير أن قبلتنا التماثيل والأصنام وقبلتكم الشمس والنيران. وعلى الجملة فأنت تعلم أن سفك الدماء لا يستحسن، وأن مؤاخذة غير المجرم عند الملوك تستهجن. فلما سمع سام ذلك أقبل عليها وسايلها عن حالها، أهى زوجة مهراب أم مستخدمة له؟ ثم سايلها عن حال روذابه وصفتها وعن مبدأ السبب فى هيمان ولده بها. فقالت إذا وثقت من الملك بمعاهدته إياها على ألا يرصد لها ولا لصاحبها بالغوائل، ولا يقصدهما قصد العدو المخاتل، أطلعته بصدق المقال على جميع الأحوال. فصفق بيده على يدها وحالفها على ذلك. فقامت سين دخت وقبلت الأرض، وقالت: أما أنا فإنى، مع انتسابى إلى الدوحة الضحاكية، صاحبة مهراب ووالدة روذابه التى ملكت بجمالها وكمالها قلب ابنك دستان. ونحن كلنا عبيد حضرتك، والمنخرطون فى سلك خدمتك. نسأل الله تعالى دوام ملكك وثبات دولتك. وإنما باشرت بنفسى هذه الرسالة لأعرف رأيك فى أهل كابل. فإن كنا نحن من المجرمين، أو لا نليق بالملك فى تلك الأرضين جريت فينا على مقتضى رأيك. فسيفك محكم فى رقابنا. ولا ينبغى على ذلك أن تتعرض بمكروه لأهل كابل الذين لم يجترحوا ذنباً، ولم يقترفوا جرماً. فلما علم سام صدق مقالتها ونصوع طويتها فى الطاعة أقبل عليها وقال إن المعاهدة بيننا قد سبقت آنفاً، ولست عن مقتضاها أحيد، ولو قطع منى الوريد. فاسرحوا آمنين فى مراتع عيشكم، واطمئنوا وادعين فى ظلال أمنكم. فإنى مظاهر ولدى على هذه

المصاهرة والمواصلة. وإن كنتم من أهل بيت آخر فإنكم من أهل الملك، ومن أصحاب التاج والتخت، وولاة الأمر والنهي. ولكن جرت عادة الأيام بتقلب الأحوال. والعاقل يعلم أن لأدوار الدول أطوار، وأن في مسالك الحظوظ أنجاداً وأغواراً. فمن ناقص ينمو نمو الهلال، وكامل ينقص كالقمر بعد الكمال، ومصير الكل إلى الزوال. وإني قد كتبت إلى الملك منوجهر كتاب تضرع وابتهال، ونفذته إلى حضرته على يدي ولدي زال. وقد حلق نحوه طائراً بقوادم العجلة، حتى كأنه حين ركب لم تحوه دفتا سرجه، ولم تمسس التراب حوافر خيله. وسيرد الملك، إن شاء الله، عنانه منعماً على بإنجاح أمله، وقضاء وطره. فرأت سين دخت حينئذ مباسم سام عن الرضا متبسمة، وأسارير جبينه بالارتياح متهللة. فطيرت فارساً إلى مهراب مبشراً بما حصل من استرضاء سام، ورجوعه خطة الموافقة، ومخبراً بما في نفسه من المساعدة على المصاهرة. ثم جاءت صباح اليوم الثاني إلى سام واستأذنته في الرجوع إلى دار ملكها، ومقر عزها، للاشتغال بإعداد أسباب العرس الميمون. فأذن لها في المعاودة، وأمر لها بخلعة تليق بمكانتها وجلالها. ووهب لها جميع ما كان في بلاد كابل من الدور والقصور والخيل والنعم، إلى غير ذلك من أنواع النعم. وتصافقا ثانياً متقبلاً روذابه لولده دستان، قولاً يصدقه الوفاء، ووصلاً يشايعه البنون والرفاء. وقال لها: لن تراعوا بعد يومكم هذا. فودعها وسرحها راجعة وأنفذ في خدمتها أميراً كبيراً في مائتي فارس، يصحبها إلى أن تطأ عرصة مملكتها، وتعود إلى ظلال دولتها.

وصول زال إلى حضرة منوجهر

جاء الخبر إلى منوجهر بوصول زال فاستقبله أعيان القواد وأمراء الأجناد. ولما قرب من السرادق رفعت دونه الستور حتى دخل. فلما وقعت عينه على

الملك قبل الأرض، ووضع جبهته على التراب على رسمهم فى الخدمة. وبقى كذلك ساعة. فأشار إلى من رفع رأسه من الأرض وقربه إلى التخت فلاطفه فى خطابه. وسايله عن حاله، وما تحمله من وعثاء السفر فى حله وترحاله. فقال: كل تعب يفضى إلى لقائك فهو راحة وسرور، وكل عناء يقع فى الطريق إليك فهو مسرة وحبور. فتناول منه الكتاب فتبسم لما قرأه مستبشراً متهللاً. ثم أقبل عليه وقال: حملت قلبك هما طويلاً، وألزمت نفسك عناء عظيماً. ولكن العزم بسبب هذا الكتاب الذى كتبه ذلك الشيخ الكبير، وإن كان صدرى بما فيه يضيق، ألا تسد دون مرادك الطريق. وسأقضى لك جميع حوائجك، وأحقق جميع مآربك. ومدوا السماط. فلما طعموا ورفع مالوا إلى مجلس الأنس والطرب، وتعاطوا كئوس الرحيق. ولما ثمل دستان نهض فأركب إلى مخيمه. ولما أصبح عاود الخدمة فأثنى عليه الملك حين شاهده وحين ثنى عنانه وفارقه. قال: فأمر بجمع العلماء والحكماء ومن تبحر من المنجمين وأمرهم بالبحث فى طالع زال والتنقيب عن سر الفلك فى أمره، وعما يؤول إليه حاله فى مصاهرته تلك. فلبثوا ثلاثة أيام يعملون دقائق النظر وثواقب الفكر فى تطلب علم ما وارته ستور الغيب. ثم جاءوا إلى باب منوجهر وقالوا أيها الملك: إنه ظهر لنا على مقتضى الأحكام السماوية وأسرار الأجرام العلوية أن يولد بين ابن سام وبنت مهراب ولد كبير القدر، رحيب الصدر، طويل النجاد، طلاع الأنجاد، ويكون غمر الرداء، واسع العطاء، مخصوصاً بشدة القوة، وضخامة الجثة، وطول المدة. تكاد هيبته تمنع العقاب الكاسر أن يطير حواليه، والأسود السود أن تزأر بين يديه. إذا لمعت بوارق سيفه فى اللقاء تدفقت شآبيب الدماء. يشد وسطه فى هذه الممالك لخدمة الأملاك، ويرفع قواعد مجدهم على ذرى الأفلاك. فلما سمع الملك ذلك أمرهم بإخفاء السر، ودعا بزال ليجرب عقله وفهمه بمسايلته عن مسائل غامضه، وإشارات خفية. فأحضر كل موبذ كان بحضرته وعقد مجلساً

عظيماً، وأحضر زالا فأمرهم أن يباحثوه ويسايلوه.

المسائل التى سئل عنها زال وما ذكر فى جوابها

قال فتصدى موبذ وسأله عن اثنتى عشرة شجرة جذب بأضباعها السموق، ومد من أعضادها البسوق. قد تشعب من كل واحدة ثلاثون غصناً لا يرى الفرس فيها زيادة ولا نقصاً. وسأله آخر عن فرسين: أحدهما أشقر كالنار والآخر أدهم كالقار. لا يزالان يتراكضان، يتعاقبان ولا يتسابقان. وسأله آخر عن ثلاثين فارساً يعرضون على السلطان، إذا عبروا نقص منهم واحد، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد. وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها فى رونق الغضارة، وتروق العيون بالبهجة والنضارة. ثم ينحى عليها ذو منجل يُنزل بساحتها مكروه الخطب، ويجمع فى حصدها بين اليابس والرطب. وسأله آخر وقال: شجرتان من بواسق الأشجار، ثابتتان فى البحر الزخار، على كل واحدة منهما وكر لطائر يصبح على إحداهما ويمسى على الأخرى. إذا طار من هذه تساقطت أوراقها، وإذا وقع على الأخرى راق العيون إيراقها. فتكون الأولى ناضرة على الدوام، والثانية ذابلة مدى الأيام. وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة فى ذروة جبل، تركها الناس وعمدوا إلى أرض تنبت القتاد، فأرسوا بها الأوتاد. وبنوا بها الدور، وشيدوا فيها القصور. وتناسوا تلك البلدة الطيبة. فبيناهم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم، وقامت عليهم القيامة، وحالفتهم الحسرة والندامة. فقيل لزال: إن أبرزت هذه الكنوز وأوضحت هذه الرموز كنت العالم الخبير، وأثرت من التراب العبير. فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل. ثم قال: أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام، على تعاقب الأزمنة والأعوام. وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان. وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان، فذاك إشارة إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون

تسعاً وعشرين، وتارة ثلاثين. وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس فى برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالخريدة المعطار، فى أحلى الرياحين وحلل الأزهار. ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحل الحوت يقبع بين أسحاق الحداد وأطمار السواد. فالشجرتان كنايتان عن عضدى الفلك الدوار، والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار. وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار ومنزل الأبرار، والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار ومعرس الأخطار. تناهبك مدارج الأنفاس، وتضرب فى انصرام عمرك الأخماس فى الأسداس. بينا أنت إلى نعيمها راكن، وفى ظلالها وادع ساكن، إذ تزلزلت من تحتك، وأمطرت مكارهها من فوقك، فسمعت الأفلاك تنشدك فى ذاك:

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار

إن هذا الإنسان، وإن طاول الكيوان، فليس يصحبه منها غير ستره تحت حفرة. فإن اكتسب فيها الذكر الجميل، أحرز هنالك الأجر الجزيل. وإن زرع العدل والإحسان، حصد الروح والريحان. ثم إن صاحب المنجل كناية عن الأجل يحصدنا كحصد النبات، فيأتى على البنين والبنات. سواء فى مكروهه الشيب والشبان، والفروع والأغصان.

قال: فلما رأى منوجهر استخراجه لتلك الرموز الخفية والأسرار المبهمة تهلل مستبشراً وارتاح مبتهجاً، وجلس فى مجلس عظيم قد فرش بالديباج والحرير، وطيب بالمسك والعبير. ودعا بدستان وسائر القواد، وتعاطوا كئوس الرحيق. فلما توردت وجناتهم وتمشت فى مفاصلهم نشواتهم قاموا متمايلين إلى مضاربهم. ولما أصبح زال عاود الخدمة واستأذن الملك فى عوده إلى أبيه. وذكر أنه قد برحت به إليه الأشواق، واستنفد صبره الفراق. فقال له الملك تلبث

عندنا هذا اليوم. فمازحه وقال إن الذى يزعجك حب ابنة مهراب، والنار تأبى إلا الالتهاب. فأمر العسكر فلبسوا السلاح وجردوا الصفاح واعتقلوا الرماح وبرزوا إلى الميدان، يتلاعبون بالسيف والسنان، ويتساجلون فى الضراب والطعان. قد نصبوا الأغراض، وتعاطوا التوتير والإنباض. فمسح زال معاطف قوسه وأطلق نشابة نحو شجرة عظيمة كانت بين يديه فمرقت منها. ثم أتبعها بأخرى راكضاً فرسه فنفذت فيها كمثل الأولى. ثم اصطف العسكر من الجانبين وزحف بعضهم إلى بعض يواترون بين طعن وضرب. وكان زال مطلاً عليهم ينظر إليهم. فرأى فيهم فارساً يغلب الأقران، ولا يتهيب السيف والسنان. فصمد صمده، وقصد قصده، وأنشب فى معاقد منطقته مخالبه وقطره عفيراً. فرفع الناس صياحهم، وقالوا: ما من فارس مقدام تعرض هذا الغضنفر إلا وأمه ثاكلة. وهيهات أن تلد الضراغم مثله أو يلاقى الملاحم والوقائع شكله. فليهن ساماً أن يخلفه هذا البطل الجسور والليث الهصور. وأثنى عليه منوجهر فى جميع الأمراء والقواد. ورجع إلى الإيوان فخلع عليه خلعة تليق بمثله مضافة إلى التاج والتخت والسوار والطوق إلى غير ذلك من الثياب الرفيعة، والخيول العتيقة، والغلمان الرشيقة. وأمر بأن يكتب جواب كتاب سام، ويعلم فيه أنه قر عين الملك بطلعة زال ولقائه وانشرح صدره بمحاسن آدابه. وأنه تقدم بإنجاح جميع مطالبه وقضاء مآربه. فخرج زال بالطائر الميمون، والطالع المسعود. وقدم فارساً إلى حضرة أبيه ليعلمه بإقباله منصرفاً من حضرة الملك منوجهر، ويبشره بما قابله من الإنعام والإعظام، وأفاض عليه من المنن الجسام. فلما بلغ الخبر بذلك إلى سام دبت فى معاطفه دواعى الطرب حتى كأنما عاد شبابه النضير بعد أن جلله القتير. فأرسل فارساً إلى مهراب ليعلمه بالحال ويبشره بما أنعم به الملك منوجهر، ويعلمه بأنه منتظر قدوم ولده، وأنه إذا وصل بادرنا إلى فنائك، واستسعدنا بلقائك. فلما بلغ الخبر بذلك إلى مهراب كاد يخلع روحه على البشير

ويطير من الفرح والسرور. ودعا بزوجته سين دخت وشكر سعيها وقال: إنك قد أعلقت يدك بشجرة من شجرات المجد، واتصلت بجرثومة من جراثيم الملك. فتأهبى للأضياف الكرام، وأعدى أسباب الإكرام والإعظام. وسلم إليها مفاتيح الخزائن، وأطلق يدها فى تلك الدفائن. فقامت ودخلت على بنتها روذابه، وبشرتها بعلو جدها وسعادة طالعها. فدعت لها بطول البقاء، ودوام المجد والسناء. وقالت: سأجعل تراب قدمك على مفرق رأسي إكليلا، وأتخذ من رأيك إلى جميع السعادات هاديا ودليلا. قال: فأقبلت سين دخت تزين الدور، وتنجد القصور. فزينت مجلساً مذهباً وفرشت فيه بساطاً منسوجاً من الذهب موشحاً باللؤلؤ والزبرجد. ونصبت تختاً من العقيان مخروط القوائم من حجر البهرمان. ثم حلت الخريدة العذراء، وجلتها على ذلك التخت كأنها الشمس فى كبد السماء، موشحة بقلائد الجوزاء. وسدلت دونها الحجب وأرخت السجف. ثم أمرت فزينوا جميع البلد بموشيات المطارف ومستحسنات الرفارف. وجللوا ظهور الفيلة بالحرير والديباج، ووضعوا على كواهلها أسرة العاج لتركبها القيان المحسنات والجوارى. واشرأبوا لاستقبال الملكين، وطلوع النيرين، مترصدين للانتظار، طامحين نحو الطريق بالأبصار.

رجوع زال إلى أبيه ونهوضهما إلى كابل للعرس

انصرف زال من حضرة الملك منوجهر يسوق مستعجلاً كالطير فى الهواء، والسفينة على وجه الماء. فلم يشعر به أحد حتى طلع على أبيه. فلما رآه وثب إليه فعانقه، ثم أهوى زال يقبل الأرض. وعاد سام إلى تخته فتسنمه. وطفق ابنه يحكى لديه ما أنعم به الملك عليه، وأسدى من عوارفه إليه. وحكى له أبوه قدوم سين دخت عليه فى طلب المصالحة والمسالمة، ومسارعته إلى تحقيق مطالبها،

ومبادرته إلى محالفتها ومصافقتها، ومواعدته العزم على النهوض إلى كابل لاجتماع القمرين، واقتران السعدين. فلما سمع دستان ذلك توردت بشرته، وتهللت أسرته من فرط الفرح والسرور. فبينا هم فى ذلك إذ وصل رسول من كابل يذكر أن مهراب ينتظر قدوم سام ودستان. ويترقب تجشمهما النهوض إليه. فأمر سام بالرحيل وقدم راكباً إلى مهراب يعلمه بوصول دستان من حضرة الملك وأنهما آخذان فى الركوب إليه والقدوم عليه. فخرج مهراب لاستقبالهما وأمر بشد الكوسات والطبول على مناكب الفيول، وركوب العساكر فى موشعات الملابس، ونشر عذبات الرايات والأعلام، وخروج القيان والمغانى بالمزاهر والمعازف. قال: فلما طلعت رايات سام ترجل مهراب إعظاماً لقدره وإجلالاً لمحله. فعانقه سام وجعل يسأله ملاطفاً ويساره مفاكهاً، ومهراب يقابله بالثناء والدعاء. فركب يسايره، ودستان يسير قدامه كالهلال ليلة العيد يشار إليه بالأصابع، ويرمى نحوه بالنواظر. حتى انتهوا إلى كابل فرأوا الأرض تطن بخفق الطبول ونقرات السرور. واستقبلهم أهل البلد راكبين قد ضمخوا أعراف الخيول بالمسك الأذفر، وخلقوا سبائبها بالزعفران والعنبر. وخرجت سين دخت ومعها ثلاثمائة وصيفة كالدرارى الشهب، على يد كل واحدة جام من الذهب نضدت عليه قطع الياقوت وحبات اللآلئ. فلما رأت ساماً وولده أمرتهن فنثرن تلك الجواهر تحت سنابك الخيل. وكثر نثر الدراهم والدنانير يمنة ويسرة حتى خيل للرائين أن السماء تمطر على تلك المواكب زهر الكواكب. وقال سام خلال ذلك لسين دخت: ألم يأن أن تقر ألحاظنا بالخريدة العربية، وتكتحل أحداقنا بالعقيلة الكابلية؟ فأجابته ضاحكة وقالت: إن أحببت أن ترى الشمس المنيرة فأين التحفة والهدية؟ فلاطفها سام وقال: كل ما أملكه من صامت وناطق نثار لقدمك وفداء لخدمك. فنزلوا ورفعت دونهم الأستار والكلل حتى دخلوا الإيوان المذهب والمجلس المنجد. فرأى سام روذابه فوق تلك المنصة متجلية كالشمس البازغة.

فبهت لرونق جمالها وقضى العجب من حسنها وكمالها. وأمر مهراب فتقدم وعقدوا العقد على عادتهم المألوفة وسنتهم المعهودة. ثم أخذوا بيد زال وأقعدوه لجنب صاحبته، ونثروا على سريرهما المنجد أطباق الياقوت والزبرجد. وكانت تلك الليلة من الليالي الزهر، ومن حسنات الدهر. وكأنها التي عناها مترجم الكتاب بقوله:

فيا ليلة فيها السمـــاء تبرجت ... سروراً كخود فرعها فاحم جثـل

وقد جلت الإكليل جبهتها لنـــا ... بكف خضيب والهلال لها حجـــل

وقد أشعلت زهر النجوم أمامها ... مشاعل منها أشرق الحزن والسهل

زفاف بـه السعدان فى فلك العلى ... قد اجتمعا. لا فض بينهما الشمـل

قال فجاءوا بنسخة تفصيل الجهاز للعرض، فأفصحت بذكر نفائس لم تر مثلها عين ولا سمعت بها أذن. وأقاموا بكابل ثلاثة أسابيع لا يفيقون من نشوات الأفراح، ولا يقصرون عن معاطاة الأكواب والأقداح. ثم عزم سام على الارتحال خارجاً نحو سجستان. فتوجه إليها وأمر زال بإعداد العماريات وتهيئة المهود والهوادج واتبعه مستصحباً صاحبته ومهراب وزوجته، وارتحلوا من سجستان جميعاً قاصدين قصد نيمروز فقدموها. وأقام سام بضيافتهم ثلاثة أيام. ثم استأذن مهراب ورحل راجعاً إلى كابل خطة ملكه ومقر عزه. وأقامت سين دخت عند ابنتها. وأما سام فإنه جعل تلك الممالك برسم ابنه دستان. وأقعده على سرير ملكه، وأقامه مقام نفسه. وترحل عنها نحو كركساران ونواحى مازندران ليتخذها داراً ويتبوأها قراراً.

ذكر ولادة رستم بن دستان

لم يمض إلا قليل حتى حملت روذابه وتناوش شخصها النحول، ومس ورد

وجنتيها الذبول. وكانت أمها سين دخت تسايلها عما تقاسيه من الحبل ووصبه، وتعانيه من الوحم ونصبه. فكانت تخبرها بما تجده من الآلام ويزعجها من الأوجاع. وكانت لا تنام بالليل ولا تهدأ بالنهار. كأن جلدها حشى بالجندل والحديد أو بالصرفان الشديد. فلما انتهت مدة حملها، ودنت ساعة وضعها غشى عليها فشهقت سين دخت وخمشت خدها ونتفت شعرها. ودب في وصائفها الأنين والنحيب، وشملهن البكاء والعويل. وأعلم بالحال زال فجاء بقلب محترق ودمع مندفق. فبينا هم كذلك متلددين بين اليأس والأمل، مترددين بين الرجاء والوجل إذ ذكر زال ريشة العنقاء التي أعطتها إياه على ما سبق ذكره. فبشر بذلك سين دخت، ودعا بمجمر فأحرق بعضها فإذا بالسماء كأنها قد تغيمت، وبالآفاق كأنها أظلمت، وبالعنقاء قد أقبلت بالطائر الميمون كسحابة شآبيبها قصب المرجان، أو روضة شقائقها من العقيان. ولما دنت خر زال ساجداً يقبل الأرض ويذرى الدمع. فنادته العنقاء وبشرته بسلامة صاحبته، وأنكرت عليه الجزع، وقالت حاش لعيون الأسود أن تنضح برشاش المدامع، ومعاذاً لمناكب الأطواد أن تتزلزل بالرياح الزعازع. إنه سيصحر من أجمة هذه اللبوة شبل أغلب، تقبل الأسود مواطئ قدميه، ولا يجترئ السحاب المكفهر أن يمر عليه. تتشقق جلود النمور دون غرار هيبته، وتستل بأنيابها مخالبها مخافة سطوته. ثم قالت: تأخذ بإذن الله تعالى حديدة حادة وتدفعها إلى آس حاذق أحذ يد القميص، ويعل الحاملة بأرطال من سلاف العقار حتى يملك السكر عنان حواسها. ثم يشق الحكيم بتلك الحديدة خاصرتها ويستخرج منها الولد. ثم يخيط الشق ويرتق الفتق. ثم يؤخذ حشيشة كذا وكذا، وتدق بلبن ومسك، وتجفف في الظل وتسحق. ثم تذر على موضع الشق. وتمر عليه ريشة من جناحي الميمون. فهنالك يسهل جميع الحزون. ولا تستهولن ذلك، وأطلق لسانك بشكر الله تعالى حيث آتاك شجرة ناضرة تثمر لك كل يوم ثمرة يانعة. ثم نزعت ريشة من جناحها ورمت

بها إليه وطارت فى السماء، وحلقت نحو تلك القلة الشماء. فبادر زال إلى تلك الريشة وأخذها، وأعد جميع ما أشارت به العنقاء من الأدوية. والخلق مجتمعون يقضون العجب من تلك الحالة. ثم جاءوا بموبذ خفيف اليد أحذق أهل زمانه فى صناعته. فسقى روذابه من المدام الصرف أقداحاً حتى سكرت وخرت صعقة لم تحس بشئ. فاستل تلك الحديدة وشق خاصرتها ثم استخرج منها بخفة وسرعة يد ولداً لم ير مثله قط. قد صوره الله تعالى على خلقةٍ تعجب العيون وتروق القلوب. وبقيت أمه على حالها مغشياً عليها يوماً وليلة. ثم أفاقت بعد ذلك فنثروا عليها الذهب والجواهر ودعوا الله تعالى وحمدوه على ما أسدى إليهم. ثم قدموا الطفل إليها كأنه ابن عشر سنين. فلما رأته تبسمت ضاحكة وقالت: « برستم »، أى قد خلصت. فسمى الصبى « رستم ». قال: فخاطوا على قد ذلك الطفل العزيز تمثالاً من الحرير وحشوه بوبر السمور. وصوروا وجهه كصورة الشمس. وركبوا عليه أعضاداً كأنها الثعابين. وجعلوا له أظافير كبراثن الأسود. وشغلوا إحدى يديه بالجرز مرفوعاً إلى كاهله، والأخرى بعنان فرس أركبوه محفوفاً بخدم مكنوفاً بخول وحشم. وأثاروا هجيناً ونفذوا التمثال إلى سام. قال: وبلغ الخبر إلى مهراب فاستهز الطرب أعطافه، وكساه السرور أفوافه. واتخذ الناس من أول أراضى كابل إلى آخر حدود زابل تلك الأيام أعياداً، مواسم سرور وفرح وحبور. يواصلون بين الصبوح والغبوق، ويفيضون سيول الرحيق فى أودية العروق. لا يفيقون من قصف، ولا ينفكون من عسف وعزف.

ولما جاء المبشر بذلك التمثال إلى سام ووقع بصره عليه قامت شعرات بدنه حين رآه على صورته وشكله. وأمر بإفاضة الدراهم ونثرها على المبشر حتى كاد ينغمر فيها شخصه. ثم أمره بضرب البشائر وركوب العساكر للتطارد فى الميدان، والتلاعب بالسيف والسنان. وأمر الكاتب أن يجيب عن كتاب زال مفتتحاً كتابه بحمد الله عز وجل قائلاً فيه لزال: إنى كثيراً ما ابتهلت إلى الله

تعالى وترعت إليه أسأله أن يقر عينى بشبل يصحر عن غيلك، على صورتى التى جبلنى عليها. فالحمد لله على قضاء الحاجة وإنجاح الطلبة. ولا أسأله سبحانه إلا أن يطيل بقاءه، ويسهل إلى معارج العلو ارتقاءه. قال: وكانت له عشر مرضعات يمتص نخب ألبانهن حتى ترعرع. ولما بلغ ثمانى سنين صار كالنخل الباسق، والكوكب الدرى فى الظلام الغاسق، يحكى فى بهاء المنظر ورشاقة القد وأبهة الجلالة جده ساماً. وكان لا يحمله مركوب غير الفيل لضخامة جثته وعبالة أكتافه. وجاء الخبر إلى سام بأنه قد ترعرع وراهق. فاشتاق إلى لقائه وأقبل نحو زابلستان. فلما أحس بمقدمه زال ركب مع مهراب، وأمر بركوب العساكر للاستقبال، وشدت الكوسات على كواهل الأفيال. وقدموا فيلاً عظيماً، وشدوا على ظهره تختاً من الذهب. وجلس رستم مشرفاً على الناس معصوب الرأس بالتاج مشدود الوسط بالمنطقة، فى يده قوس ونشاب. فلما طلعت رايات سام من بعيد اصطفت العساكر سماطين. فترجل زال ومهراب والأمراء والقواد ووضعوا جباههم على الأرض برسم الخدمة. ثم أطلقوا ألسنة الإخلاص بالثناء والدعاء. وتهلل وجه سام حين وقع نظره على رستم. وأمر فقرب منه الفيل الذى هو راكبه فرآه على تلك الهيئة. فأثنى على الله تعالى، ودعا له بالبقاء. ففتح رستم لسانه بالثناء عليه وقال: إنما أنا فرع أنتمى إلى جرثومة جلالك وأتقيل شمائلك فى جميع أحوالك. ولعل الله تعالى حين صورنى على صورتك يمد أعضادى بمثل قوتك. ثم نزل عن ظهر الفيل. وأكب عليه سام يقبل رأسه وعينه، ويعوذه بالله عز وجل. ثم توجهوا جميعاً نحو كورابذ يتفاكهون فى الطريق بصدور منشرحة وقلوب مرتاحة وأقاموا بها شهراً كاملاً لا شغل لهم غير اللهو والطرب، ولا نديم لهم سوى ابن الغمام وابنة العنب. وكان سام لا يقبض عنان طرفه عن رستم وشمائله، ويقول لزال: لو سايلت مائة من القرون لم تسمع بولد استخرج عن خاصرة أمه كما استخرج هذا. وطفق يشكر العنقاء

ويحمد الله عز وجل إذ ألهمها صنيعها ذلك. فاندفعوا فى شرب المدام إلى أن أفرغت الكئوس، وشرقت بالخندريس النفوس. وطفق مهراب فى غمار سكره يقول: لا أبالى بعد يومى هذا بزال، ولا أفكر فى سام، ولا يهمنى هم الملك المتوج. إذا برزت مع رستم إلى الميدان وتطاردنا مع الفرسان اضطرب لمهابتنا الخافقان. وسأحيي دولة الضحاك، وأضرب خيم العز على الأفلاك. ثم عزم سام على الرحيل فارتحل وخرج فى ركابه رستم وأبوه برسم الوداع مرحلتين. فأقبل سام على زال وأوصاه بالعدل والإحسان، وطاعة السلطان، ومتابعة الرأى والعقل، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء، وسلوك سبيل الحق، والتنكب عن طريق الشر. ثم قال له: إياك والإخلال بشئ من هذه الوصية. واعلم أن نفسى تحدثنى بأن مقامى ليس يطول فى دار الدنيا، وكأنى قد شارفت الارتحال. ثم ودع ولديه وركب. فشيعاه مرحلتين أخريين ورجعا. وانطلق سام متوجهاً نحو مستقره.



رستم والخطوب السبعة



رستم (Rostam)، بطل أبطال أساطير إيران، هو ابن زال بن سام بن نريمان بن گرشاسب، وأمه رودابه بنت مهراب الكابلى وحفيدة الضحاك. وقد ولد فى زمن الملك منوچهر، وتبدأ قصة بطولته الأسطورية بقتله الفيل الأبيض وهو طفل صغير، وبعد ذلك أظهر الكثير من البطولات الخارقة مثل فتح الحصن الأبيض الذى عجز سام ونريمان عن فتحه بعد أن حاصراه مدة من الزمن. ومن الأعمال التى تنسبها له الشاهنامة إحضار الملك كيقباد (KeyGhobaad) من جبال ألبرز وإجلاسه على عرش إيران. وقصة السبعة خطوب أو "هفتخوان"، وفتح مازندران وتحرير الملك كيكاوس (KeyKavoos) من الأسر ومحاربة سهراب (Sohrab) وقتله بدون أن

يعرف أنه ابنه، ومحاربة أفراسياب (Afrasiyab) ملك توران طلباً لثأر الأمير الإيرانى سياوش (Siyavash)، والحرب مع التورانيين، وأسر خاقان الصين، ومصارعة أكوان الجنى، وتخليص البطل بيژن (Bijan) من البئر التى حبسه فيها أفراسياب، ومحاربة إسفنديار (Esfandiyar) وقتله. وبعد كل هذه البطولات اغتيل رستم على يد أخيه الخائن شغاد (Shoghaad).

يُعرف رستم فى الكتابات البهلوية بـ«رت ستخمك» أو «رتستخم» أو«رتستهم»، وهو الاسم الذى صار فى الفارسية بعد ذلك «رستهم» أو «رستم». وقد ذكرنا سبب التسمية فى أسطورة زال عند ولادة رستم.

ورستم من الشخصيات الأسطورية التى عرفها العرب منذ الجاهلية، فقد ورد فى سيرة ابن هشام أن النضر بن الحارث كان قد ورد إلى الحيرة وسمع فيها أحاديث ملوك العجم ومنها قصة رستم وإسفنديار، وكان إذا جلس رسول الله (ﷺ) فى مجلس خلفه وقال للناس: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه. فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية، قال الكلبى ومقاتل: " نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتجر فيأتى الحيرة ويشترى أخبار العجم ويحدث بها قريشاً، ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون".

أوردت كتب التاريخ فى العصر الإسلامى بعضاً من سيرة رستم بن زال، ومن ذلك ما ورد فى تاريخ الطبرى ومروج الذهب وتاريخ ابن خلدون، وكان يوصف فى هذه الكتب بالقوة، ويلقب بـ«الشديد»، فيصفه أحدهم بقوله: " كان رستم الشديد... جباراً مديد القامة شديد القوة عظيم الجسم... ". كما نسب بعض القادة والأمراء المسلمين أنفسهم إلى ذلك البطل الأسطورى، ومن هؤلاء طاهر

ابن الحسين قائد المأمون.

وتحكى أسطورة رستم والخطوب السبعة قصة قيام هذا البطل بإنقاذ الملك كيكاوس الذى أقبل بغروره على مهاجمة بلاد مازندران رافضاً الاستماع إلى نصائح أبطال إيران وعلى رأسهم زال الذى يطلب من رستم المسارعة فى إنقاذ الملك الذى هزم ووقع فى الأسر، ويذهب رستم فى طريق يواجه فيه سبع عقبات يتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى، أولها الأسد الذى يشتبك مع حصانه رخش(Rakhsh)، وثانيها إشرافه على الهلاك لولا الحمل الذى أرشده للماء، وثالثها مقاتلته للتنين، ورابعها قتله للمرأة الساحرة، وخامسها أسره لـ«أولاد». وسادسها مقاتلته للجنى «أرژنگ» (Arjang)، وسابعها قتله للجنى الأبيض. وبعد كل هذه الصعاب، يصل رستم إلى مازندران ويخلص كيكاوس وأبطال إيران من الأسر.

تعرف هذه الأسطورة فى الشاهنامة باسم «هفتخوان» وتنطق «هفت خان»، أى: المنازل السبعة أو المجالس السبعة أو الموائد السبعة أو المراحل السبعة، وكلها ترجمات يحتملها مضمون الأسطورة، ففى كل مرة كان البطل ينزل بمكان يلاقى فيه عقبة يتغلب عليها ويجتازها مواصلاً المسير نحو هدفه. وقد وضعت للأسطورة عنواناً عاماً هو رستم والخطوب السبعة، والخطب هو الأمر الشديد الذى يكثر فيه التخاطب.

والنص الذى اخترته لأسطورة رستم والخطوب السبعة من كتاب «الشاهنامة» للفردوسى، وهو أبو القاسم منصور بن مولانا فخر الدين أحمد بن مولانا فرخ الفردوسى. ولد فى طوس بخراسان لأسرة من ملاك الأراضى ممن عرفوا بالدهاقين فى القرن الرابع الهجرى وعاش فى نفس القرن، وقد شغله تاريخ الفرس منذ صباه فبدأ فى شبابه فى جمع أساطيرهم وقصصهم فى

منظومته الشعرية المسماة بالشاهنامة، وأنفق كل ماله فى سبيل ذلك، وفرغ منها في الخامسة والستين من عمره، وأراد أن يجنى ثمار الأعوام الطوال فقدمها للسلطان محمود الغزنوى، ولكن السلطان لم يعره الاهتمام المناسب ولم يعطه العطاء المأمول، وتعددت الأقوال فى سبب هذا الجفاء من السلطان، مثل اتهام الشاعر بالتشيع، ووشاية الوشاة، وغيرة السلطان من بطولة الملوك والأبطال الذين ذكرهم الفردوسى وخلد سيرتهم.

خرج الفردوسى من غزنة غاضباً مغضوباً عليه من السلطان الذى هجاه واستحقر عطيته، وتوجه إلى هراة حيث توارى عن الأعين، وعندما شعر بالأمان خرج من هراة وتوجه إلى طوس، وحمل الشاهنامة إلى طبرستان، ونزل على ملكها شهريار الذى ينسب نفسه إلى الملك يزدجرد آخر ملوك الساسانيين، وهجا محموداً فى مائة بيت، وطلب من شهريار أن يجعل الشاهنامة باسمه بدلاً من السلطان محمود، ولكن شهريار رفض ذلك وتلطف به واشترى منه قصيدة الهجاء حتى لا تصل إلى مسامع السلطان. وعاد الفردوسى إلى طوس وقد قارب التسعين من عمره، فمكث بها حتى توفى سنة ٤١١ أو ٤١٦هـ.

أما الشاهنامة نفسها فإنها الكتاب الذى يفخر به الفرس منذ نظمه الفردوسى حتى الآن، وذلك لأنه جمع فيها أغلب أساطير الفرس، وقضى فى نظمها والتأليف بينها وترتيبها ما بين ٣٠ – ٣٥ سنة، ورجع أثناء ذلك إلى الكثير من المصادر إلى أن أخرجها فى ما يقرب من ستين ألف بيت فى بحر المتقارب. يقول الدكتور عبد الوهاب عزام عن مكانة الشاهنامة عند الفرس: " وللكتاب عند الفرس مكانة عظيمة، وهو سجل تاريخهم، وأناشيد مجدهم، وديوان لغتهم، ينشدونه فى المحافل، ويهيم به العالم والجاهل، وقد سماه ابن الأثير قرآن القوم

... ولا ريب أن لموضوع الكتاب ولعصبية الفرس أثراً في ولوع القوم به كما أن لجمال الشعر وحسن التصوير وروعة الأسلوب وجلجلة الوزن أثراً ".

رتب الفردوسي شاهنامته ترتيباً تاريخياً، حيث بدأ بذكر الأسرة الحاكمة من أول ملك إلى آخر ملك وما كان في عصر كل واحد منهم من أحداث. واختتم كتابه بالفتح الإسلامي لإيران. ولهذا فالشاهنامة كما يقول عبد المجيد بدوى: " سفر ضخم يضم بين دفتيه مجموعة من الملاحم تتخللها وقفات قصيرة للشاعر يفرغ فيها لنفسه يمدح ويرثي ويشكو ويسوق العظات والعبر والحكايات، ولا يمكن أن ننظر إليها كملحمة واحدة إلا على أساس كونها ملحمة أمة بأسرها، تصور في بدايتها حياة شعب تصويراً أسطورياً يرتكز على أصول بعيدة مجهولة لا تخضع لتحقيق علني، ثم تمزج في تصويرها بين أطياف الخيال والأوهام وومضات الحقائق الخافتة، وتدنو بالصورة رويداً رويداً من أضواء واقعية كاشفة لا تبدد تماماً حلك الأساطير، وتنتهي بنا إلى صورة تاريخية روائية واضحة المعالم ".

وأسطورة رستم والخطوب السبعة، كما سيأتي في نص الفردوسي، تتناول قصة ذلك البطل من لحظة تفكير كيكاوس في محاربة مازندران حتى تخليصه من أسر الجني الأبيض في تلك البلاد. والشخصيات المهمة في هذه الأسطورة هي شخصيات: رستم، كيكاوس، الجني الأبيض، ورخش حصان رستم. وجاء نص الأسطورة تحت العناوين التالية:

- مُلك كيكاوس وكان مائة وخمسين عاماً
- مجئ المغني إلى كاوس وقصده مازندران
- نصح زال للملك كاوس

أسطورة ستم

مُلك كيكاوس

وكان مائة وخمسين عاماً

عندما تعلو الشجرة المثمرة ينالها الضرر من الفلك الدوار، فتذبل أوراقها ويضعف جذرها وتميل رأسها في البداية إلى الحضيض، وعندما تنقطع جذورها من الأرض فإنها تترك مكانها لغصن جديد، ويهب له الربيع الزهر والورق والبستان كأنه مصباح مضئ، ولو نما الغصن السئ من الجذر الطيب فلا تسارع بذم الجذر، وعندما يترك الأب العالم لولده فعليه أن يظهر له كل خفي، فإذا ألقى بمجد أبيه وسمعته فلا تقل عنه ابناً بل قل عنه غريباً، وعندما يضل طريق المعلم فإنه يستحق أن يرى الجفاء من الزمان، هكذا هو رسم الدنيا العتيقة، لا ترى لها رأساً يظهر من قدم، وعندما يصاب الإنسان بطبعها السئ فإنه يستحق ألا يبقى كثيراً في الدنيا.

اسمع قول الرجل الطاعن الحكيم القلب واذكره مرة بعد مرة، عندما أخذ كاوس مكان أبيه صارت الدنيا كلها تابعة له من شرقها لغربها، ورأى العالم كله عبداً تابعاً له، ورأى الكنز عامراً بكل نوع من الذخائروالدفائن، من الطوق والعرش وكذلك القرط والتاج الذهبي المرصع بالزبرجد، وكذلك الجياد العربية ذات الأعناق القوية، مما لم يعلم له أحد مثيلاً أو شبيهاً.

مجئ المغنى إلى كاوس وقصده مازندران

كان كاوس يحتسى الخمر الهنيئة فى الروضة المذهبة ذات يوم، وكان هناك عرش ذهبى بقوائم بلورية، ويجلس عليه ملك العالم، وكان الملك يتشاور مع أبطال إيران، ويحدثهم فى كل كبيرة وصغيرة، فقال: " من هو ملك العالم؟ ومن الذى يستحق العرش غيرى؟ لقد حقت لى الرفعة والعظمة فى هذه الدنيا، ولا أحد يستطيع أن ينازعنى أو يعادينى ". كان الملك يتحدث وهو يشرب الخمر، فحار فيه قادة الجيش وتعجبوا منه، وعندئذ جاء شيطان فى هيئة مطرب، وطلب من الحاجب الدخول على الملك، وقال: " إننى عازف ماهر من المغنين من أهل مازندران، وسيعجب الملك بهذا الوجه الميمون والوجه والشعر، وكذلك من ريشة العزف ومن خلقى وطبعى، سيعجب الملك عندما يرى كل هذا، وسيفيده غنائى وينفعه كذلك، ولو كنت أستحق عبودية الملك وتبعيته فليفتح لى الطريق إلى عرشه ".

ذهب كبير الحجاب إلى داخل القصر، وجاء إلى الملك فى خيلاء، وقال له: " إن مغنياً على الباب، وهو عازف لطيف معه العود، إنه يبحث عن سبيل إلى هذا العرش، فبماذا يأمر الملك العظيم؟ ".

أمرهم الملك أن يسرعوا به إليه وأجلسوه مع العازفين، وعزف على العود كما ينبغى أن يكون العزف، وغنى أنشودة مازندرانية، قائلاً: " فلتكن بلادنا مازندران مذكورة، ولتكن حدودها عامرة على الدوام، فالزهور فى بستانها دائماً وعلى جبالها الشقائق والسنابل، والهواء عليل والأرض مزدانة، لا حارة هى ولا باردة، بل ربيع دائم، وفى رياضها البلبل الصداح، وفى سهولها الغزال المتبختر الذى لا يكف أبداً عن القفز والجرى، والألوان والأريج فى كل مكان طوال العام وكأن ماء الورد يجرى فى نهرها فتسعد الروح من رائحته، ترى

الأرض فيهــا دائمــاً مليئــة بزهــور الشــقائق فــى شــهور دى وبهمــن وآذر وفروردين[1]، والنهر باسم الثغر طوال العام، والصيد قائم فى كل مكان، والبلاد كلهـا مزدانــة مـن شـرقها لغربهـا بالـدنانير والـديباج والثـروات، والجـوارى الحسناوات بتيجـان الـذهب، والعظمـاء كلهم بالمنـاطق الذهبيـة، ولـيس فـى هذه البلاد العامرة شخص لا يكون سعيد القلب والروح فى آماله ورغباته ".

لما سمع كاوس منه هذا الكلام فكر فى فكرة جديدة، وربط قلبه الراغب فى الحرب بهـا، وهـى أن يقود الجيش إلـى مازنـدران، وهكذا قـال لعظمـاء الحـرب والنـزال: " لقـد انشـغلنا تمامـاً بـاللهو والطـرب، ولـو اتخـذ الشـجاع مـن الكسـل والوهن حرفة فإنـه لـن يمل الراحـة والمقـام، فالكسـول تعيس الحـظ ويحـل عليـه الشقاء وتصيبه الشـدائد، وعندما يتخذ الشـاب من الجبن حرفـة فإن طبعـه يبقـى حقيراً مظلم الروح، إننـى أفوق جمشيد والضحاك وكيقباد مجداً وحظاً وأصـلاً ونجابة، ويجب أن أفوقهم فى الفضـل أيضـاً، ويجب علـى الملك المتوج أن يكون فاتحاً للعالم، يجب أن أقود الجيش إلى مازندران، وأن أستولى عليهـا مـن شـرقها لغربها بالمقمعة الثقيلة ".

لما وصـل الحديث إلى مسامع العظماء لم ير أى منـهم فـى هذا الرأى يُمنـاً أو سـعادة، واصـفرت وجـوههم جميعـاً وقطبـوا الجبين، ولـم يكـن أحـد منـهم يتمنـى حرب الشـياطين، ولـم يستطع أحـد أن يجيبـه بصـدق، وحزنـت القلـوب وامـتلأت الشفاه بالآهات. وقال طـوس و گـودرز وكشـواد و گيـو، وكذلك خـراد و گرگين ورهام الشجاع[2]، قالوا جميعاً: " نحن عبيدك ولا نسير فى الأرض إلا بأمرك".

---

[1]) أسماء شهور فى السنة الإيرانية.

[2]) طـوس (Toos) وگـودرز (Goodarz) وكشـواد (Keshvaad) وگيـو (Giv) وخـراد (Kharaad) وگرگين (Gorgin) ورهام (Rohaam) مجموعـة مـن أعظـم أبطـال إيـران

وبعدئذ تجمعوا فى جماعة، وشغلوا قلوبهم بقول الملك، وجلسوا وتحدثوا مع بعضهم البعض فقالوا: " ماذا حل علينا من الحظ؟ لو كان الملك قد قال هذا الكلام ولم يخفه بسبب شرب الخمر فسيحل علينا وعلى إيران الهلاك، ولن يبقى الماء والتراب من هذه البلاد، إن جمشيد بتاجه وخاتمه وبطاعة الطير والشياطين والجن له لم يذكر مازندران أبداً، ولم يبحث عن قتال الشياطين الشجعان، وفريدون الوافر العقل الشديد الاحتيال لم يكن سباقاً لهذه الرغبة رغم أنه جدير بقطع هذا الطريق إلى آخره بالشجاعة والسمعة والكنز والجواهر، كما أعرض منوچهر عن هذا، ولم يحقر همته فى ذلك الأمر، ويجب علينا الآن أن ندبر حيلة لهذا الأمر، وأن نجد له العلاج فى الخفاء، يجب الوصول إلى تدبير لذلك الأمر، فالشر يحيق بأرض إيران ". وقال طوس للعظماء: " أيها القادة الأبطال الخبراء بالقتال، الآن هناك حل واحد لهذا القيد، فلنبحث عنه، وهذا أمر ليس صعباً، يجب إرسال رسول سريع إلى زال بن سام، وإخباره بالرسالة، فيقول له: لو كان الطين على رأسك الآن فلا تغسله، وعليك بشحذ العقل والتوجه إلينا، ويقول له إن الملك كاوس العظيم قد أقبل على أمر جديد لا طائل منه، وأن عاقبته هى الندم، فيجب العودة الآن بسرعة. لعله يفتح قلب الملك العظيم بحديثه الملئ بالنصح، فيقول له: لقد أرشدك الشيطان لهذا، ولا يجب فتح باب الشيطان أبداً. ولعل زال يثنيه عن هذا القول، وإلا سنرى الوهاد والنجاد ". واتفق الأبطال كلهم على هذا الرأى، وأن يسرع زال لهذا الأمر، وتحدثوا بكل ألوان الحديث، ثم سيروا رسولاً سريعاً، فكان يسرع فى المسير حتى سيستان، وعندما جاء إلى زال منير الدنيا وأخبره برسالة العظماء قائلاً: " أيها الشهير الشريف ابن سام، لقد عرض لنا الآن أمر عجيب لا يمكن قياسه بالعقل، وإذا لم تشد خاصرتك من

الأسطوريين الذين نجدهم فى خدمة الملك فى أى معركة، منهم من ينتمى للأسرة المالكة كطوس، ومنهم من ينتمى لأسرة من أسر البطولات كأسرة گودرز.

أجل هذا الأمر فلن يبقى أحد هنا ولن تبقى الديار، لقد أضمر الملك في قلبه أمراً، وأثناه الشيطان عن الصراط المستقيم، إنه لا يريد أن يرضى بتعب أجداده الأولين، ويلدغه الكنز الذى لم يتعب فيه، ويطمع فى عرش مازندران، فإذا تأخرت فى المجئ إلينا فإن الملك سيسرع فى الخروج، وستذهب متاعبك التى تحملتها مع كيقباد[1] من البداية أدراج الرياح، لقد شددت خاصرتك كالأسد الشجاع أنت ورستم الأسد الذى لم يرضع اللبن، والآن ضاع كل ذلك عنده، وتأذت روحه الحقودة وتألمت ". فحزن دستان وتألم بشدة عندما سمع تلك الرسالة، فقد اصفرت أوراق الشجرة الملكية وذبلت، وكان يقول إن كاوس رجل عنيد لم يجرب حر الدنيا ولا بردها، ولا يسمع كلام الرجال المحنكين، ولا ينعس الليل المظلم مع رأيه وتدبيره، إن من يكون له العرش فى هذه الدنيا، وتمر عليه السنوات والشمس والقمر ويرتعد من مخافة سيفه كل الأكابر والأصاغر فى الدنيا لن يكون هناك عجب إذا لم يمل لقولى، وسأحزن إذا لم يستمع إلى نصحى، ولو جعلت هذه المشقة يسيرة على قلبى أكون قد قطعت القلب عن التفكير فى الملك، ولن يقبل خالق العالم هذا منى ولا الملك ولا أبطال بلاد إيران. فلأذهب وأنصحه بكل ما ينبغى من نصح، وسينتفع إذا قبل منى النصيحة، ولو احتد وغضب وفتح الطريق لذلك فإن البطل رستم سيكون مع الجيش هناك . وغرق فى التفكير طوال الليل الطويل، وعندما أظهرت الشمس تاجها من عليائها شد خاصرته وتوجه ناحية الملك وذهب معه العظماء، ووصل

---

[1]) كيقباد، هو الأول فى طائفة من الملوك تسمى بالكيانيين، وتبدأ أسماؤهم بكلمة (كى) التى يُظن أن معناها الملك، وتذكر الشاهنامة أن إيران تعرضت لمخاطر التورانيين، ولم يجد الأبطال وعلى رأسهم زال إلا البحث عن ملك تجتمع عليه كلمتهم بعد أن مات كرشاسب ولم يترك من يخلفه، ويُخبر الموبذ البطل زال بأن كيقباد الذى هو من نسل أفريدون يقيم على جبل البرز، فيرسل ابنه رستم لإحضاره، ويبايعه الإيرانيون ويقودهم فى محاربة التورانيين.

الخبر إلى طوس وگودرز وگيو ورهام وگرگين والأبطال الشجعان بأن دستان قد اقترب من إيران وأن رايته الميمونة قد ظهرت، فذهب قادة الجيش لاستقباله، واستقبلوا تلك الرأس التى تلبس تاج البطولة، وعندما اقترب منهم دستان بن سام ترجلوا له جميعاً على الفور، وأثنى عليه العظماء جميعاً، وذهبوا معه إلى الملك، وقال له طوس: " أيها العظيم الشجاع، لقد كابدت مشاق الطريق الطويل، وفضلت هذا التعب على الراحة من أجل عظماء بلاد إيران، إننا جميعاً مخلصون لك، ونمتدح مجدك وتاجك ونثنى عليهما ". فقال زال للعظماء والمشاهير: " كل من يبليه العمر يتذكر نصح الشيوخ، وبعدئذ يهبه الفلك الدوار من عطائه، ولا يليق أن نمتنع عن نصحه، فهو ليس فى غنى عن نصيحتنا، ولو أدار رأسه عن النصيحة الصغيرة فسيحل عليه الندم والآلام ". فصاحوا قائلين: " نحن معك ولن نسمع نصح أحد غيرك ". ثم جاءوا جميعاً إلى الملك، جاءوا إلى التاج والعرش الشهيرين، وكان زال يسير فى المقدمة، ومن خلفه العظماء بمناطقهم الذهبية.

نصح زال للملك كاوس

عندما رأى دستان بن سام الملك كاوس جالساً على عرشه سعيداً، وكان كما لو كان منوچهر قد عاد من موته وجاء عظيماً بالتاج، ذهب إلى مكان جلوسه ويده على صدره ورأسه محنية، وبعدئذ أثنى على الملك وامتدحه كما كان يليق بهذا العظيم الشهير، وقال: " يا ملك العالم ويا أعظم ملك بين العظماء، لم يجلس أحد مثلك على العرش ولا رأى التاج مثل حظك ولا سمع الفلك الدوار عن إقبال مثل إقبالك، ليس فى الدنيا مثلك، ولم يأت من يستحق العرش وتاج الملوك، لتكن منصوراً وسعيداً طوال عمرك، وليكن قلبك مليئاً بالحكمة ورأسك بالعدل ". فأكرم الملك ذلك الشهير ولاطفه وأجلسه بالقرب من عرشه، وسأله عن مشاق الطريق وصعوباته، وعن الأبطال وعن رستم العظيم، فقال زال للملك: " عشت

مخلداً أيها الملك المنصور، ولتبق رأسك نضرة وجسدك سليماً وروحك صادقة، ولا كانت المنطقة الملكية واهية ضعيفة. نحن جميعاً فى سعادة وحظ منير بك، ورؤوسنا مرفوعة بعرشك، بعدئذ أخذ فى تمثل الأمثال، وانطلق فى ما يجب من حديث، فقال له: " يا ملك العالم، يا من تستحق التاج وعرش الملوك، أنت أيها الملك تذكار من أفريدون، فلا قطع الزمان عنك محبته، لقد سمعت مؤخراً كلاماً شديداً يقول إن الملك ينوى الذهاب إلى مازندران، فاسمع منى أيها الملك الشهير نصيحة تعلم الشهامة والشجاعة والحكمة، فالحكمة رأس الإحسان والعظمة، ومن الحكمة تكون الزيادة والنمو والجمال، إن الشاب الحكيم صاحب الطبع الرفيع لا يسمع اللوم من أحد فى الدنيا، ويكون سعيداً طوال عمره بسبب عمله، ومقبولاً من الناس الحكماء، ولا يكون له خوف أو رهبة من فعل الشر أمام الإله الطاهر فى دنياه هذه، وإذا لم يكن الرجل صبوراً متحملاً فإنه يجب البكاء على من لا يصبرون، والعاقل منصور وقوى وثابت ويعرف التمهل والثبات أمام الخير والشر، ويستحوذ على المكان والزمان بعقله ومكره وثباته ورأيه، وعندى نصيحة أخرى أقولها لك حتى أطهر قلبك من الظلمات، فليكن لك الإحسان والسرور والتوفيق، ويرتفع اسمك فى الدنيا بالخير، أنت تعلم أن جدك جمشيد كان له تاج كالشمس المضيئة، وأطاعته الشياطين كلها والضوارى، وكانت الدنيا كلها تعاهده من شرقها لغربها، ولم يكن يذكر مازندران فى قلبه، ولم يشغل رأسه بهذا الأمر. إن فريدون لم يذكر هذا الأمر وهو نفسه الذى قضى على عرش الضحاك، وكان هناك ملوك كثيرون قبلك ولم يسيروا أبداً فى هذا الطريق، وقد انقضى الكثير من عمرى، ودار الفلك كثيراً فوق الأرض، ورحل منوچهر من هذا العالم الشاسع، وبقى من بعده الكثير من الكنوز والقصور هنا، وما أكثر العظماء الذين نتذكرهم مثل زو[1]، و نوذر، و كيقباد، وهؤلاء لم

---

[1]) زو (Zaav)، الملك التاسع فى سلسلة ملوك إيران الذين تذكرهم الشاهنامة، وهو زو بن طهماسب. حكم إيران وقد شارف على الثمانين فساس الرعية بالعدل، وكف يد الظلم، وينسب إليه

يقصدوا بلاد مازندران بجيوشهم الجرارة والمقامع الثقيلة، فهى بلاد الشيطان الساحر، وهى مطلسمة ومحمية بحيل السحر، ولا يمكن فك تلك القيود أبداً[1]، فلا تهلك الرجال والكنوز والأموال، فهى لا يمكن هزيمتها بالسيف ولا تقع فى اليد بالكنز والحكمة. إن أحداً لا يعتبر الذهاب هناك أو التفكير فى الذهاب من هنا الآن شيئاً ميموناً، فلا يجب توجيه الجيش إلى تلك الناحية، فإن أحداً من الملوك لم ير هذا الرأى رأياً مباركاً، ولو كان هؤلاء المشاهير هم تابعوك فإنهم مثلك عبيد لله الحكم، فلا تزرع شجرة من أجل الطمع بدم الكثير من المشاهير العظماء، لأن ثمرها لعنة وطولها كراهية، ولم يكن هذا هو مذهب الملوك الأولين ".

رد كاوس على زال

هكذا رد عليه كاوس قائلاً: " إننى لست فى غنى عن فكرك الثاقب، ولكنى أكثر من فريدون و جمشيد شجاعة ومجداً وثروة، وكذلك أكثر من منوچهر ومن كيقباد، أولئك الذين لم يفكروا فى مازندران، وجيشى وقلبى وكنزى هم الأكبر والأكثر، والعالم تحت سيفى البتار، لقد فتح العالم عندما كنت تتحمل وتثبت، فلماذا نجعل الدنيا بعيدة عن حديد السلاح، فلأذهب، وأصطادهم فى شباكى واحداً واحداً عندما أجئ بمراسم السيف والشهرة، فإما لا أبقى أحداً فى مازندران أو أفرض عليهم الجزية الكبيرة والخراج الثقيل، فهم أذلاء

أنه حفر نهرى الزاب بالعراق وأنه أول من اتخذ ألوان الطبيخ وأمر بها وبأصناف الطعام.

[1]) تذكر الأسطورة أن أبطال إيران لم يرغبوا فى مهاجمة مازندران خوفاً من الجن والشياطين من أهلها، ومن الجنى الأبيض خاصة، وربما كان لطبيعة تلك البلاد أثر فى بعض تفاصيل هذه الأسطورة، فمازندران إقليم يقع بين جبال ألبرز وبحر قزوين وجوها رطب ومطرها غزير، وقد ذكر ياقوت فى معجمه عنها ما يلى: " وهى كثيرة المياه، متهدلة الأشجار، كثيرة الفواكه، إلا أنها مخيفة وخمة، قليلة الارتفاع، كثيرة الخلاف والنزاع... وهواء الأبطاح يبيض أجسامهم ولذلك سموا – فيما يقال – الجن الأبيض، وهم على هذا أقوياء شجعان، وهم خير الجند الإيرانى ".

مستحقرون فى عينى، سواء السحرة أو الشياطين من هؤلاء القوم، وسيصل إلى مسامعك هذا الخبر عندما أخلى الدنيا من هؤلاء، لكن يجب بذل الكثير من الجهد حتى يمكن تحقيق هذا المراد، فكن أنت ورستم الآن ملوكاً، وكن حارساً لإيران متيقظاً فى حراستها، وخالق العالم هو عونى ومساعدى، ورؤوس مردة الشياطين هى صيدى، فإذا لم تكن عونى فى الحرب الآن فلا تطلب منى البقاء على العرش ". فلما سمع زال هذا الحديث من الملك لم ير له رأساً ظاهرة من قدم، وقال له: " أنت الملك ونحن عبيدك، وإنما نتحدث معك عطفاً وشفقة، وسواء كنت على حق أو على باطل فإنه يجب أن نخطوا أو نتحدث من أجلك، لقد أخليت قلبى من الأفكار، وقلت كل ما أعلم، وإن الموت لا يمكن إبعاده عن الجسد ولا يستطيع أحد أن يخيط عين الزمان بمخيط، وتجنب أيضاً رجلاً لم يتطلع لحاجة أو رغبة، فالفاتح العظيم لا يجد مهرباً من هذه الأشياء الثلاثة. فليكن العالم المنير مباركاً عليك، ولا كنت فى حاجة إلى نصحى، ولا اعتراك الندم على فعلك، وليكن قلبك ودينك ومذهبك فى نور وضياء. ويليق بالملك ألا يحزن من قولى، فقد تحدثت طلباً للخير ". ثم ودع زال الملك مسرعاً، فامتلأ قلبه بالحزن والألم لرحيله، وخرج من عند الملك كاوس وقد أظلمت الشمس والقمر أمام عينه، وذهب معه العظماء الشجعان مثل طوس و گودرز و رهام و گيو، فقال گيو لزال: " إننى أطلب من الله أن يكون هو المرشد والدليل حين لا يكون لكاوس مغيث أو معين، ولا أملك له مواجهة أحد، وليبتعد عنك الطمع والموت والفاقة، ولا طالتك يد الأعداء. إننا أينما نذهب أو نأتى لا نسمع حديثاً إلا فى مدحك والثناء عليك، ثم إن بلاد إيران تضع عليك آمالها من الله خالق العالم. لقد تحملت الصعاب من أجل الشجعان وقطعت ذلك الطريق الشاق، والآن هذه هى حيلتنا وكفى، فليس هناك أحد إلا بطلٌ ملكنا ". فقال دستان لهم: " إن العليم واحد، وليس هناك سبيل للاحتيال فى قضائه وقدره، فعليكم أن

تطيعوا أوامر الملك ولا يعرض أحد منكم عن هذه المعركة. إننى أرجو من الله الغنى أن أراكم ثانية فى سعادة وسرور ". قال هذا ثم عانقهم مودعا، وأخذ طريقه إلى سيستان.

ذهاب كاوس إلى مازندران

ما إن رحل القائد زال عن المدينة حتى خرج الجيش مسرعاً فى الحال، فقد أمر الملك أن يقود طوس وگودرز الجيش للخروج إلى الطريق، وعندما صار الليل نهاراً، توجه الملك ومعه الشجعان إلى بلاد مازندران، وسلم إلى «ميلاد» بلاد إيران ومعها مفتاح الكنز والتاج والخاتم، وقال له لو ظهر العدو فلا يجب عليك سل سيف القتال من غمده، بل الجأ إلى زال ورستم عند كل شر، فهما ظهيرا الجيش وزينة العرش. وفى اليوم التالى، علت أصوات الطبول، وكان گودرز وطوس يقودان الجيش. وذهب كاوس منير الجيش ونصب عرشه عند جبل (أسبروز)، وجعل مكان راحته ونومه فى ذلك المكان الذى تغيب فيه الشمس، وهو الموضع الذى كانت تأوى إليه الشياطين، وكان الشيطان نفسه يخاف فى هذا المكان، وبسط الفرش المذهبة على الجبال، وامتلأ الهواء برائحة الخمر السائغة للشاربين، وجلس الأبطال الميامين عند عرش الملك كاوس، وأقاموا مجلس السرور طوال الليل. وعندما قاموا من نومهم عند السحر جاءوا إلى الملك متفرقين وقد شدوا المناطق على خصورهم ولبسوا المغافر. وهكذا قال الملك كاوس لگيو: " فلنتقدم ولتنشب مخالبك، واذهب إلى أبواب مدينة مازندران بالسيف والمقمعة الثقيلة، واجعل كل من تراه من الشيوخ أو الشباب جسداً لا روح فيه، واحرق كل ما تراه فيها من عمران، واجعل النهار ليلاً فى كل مكان تحل به، واجعل الدنيا تخلو من السحرة أجمعين، حتى يصل الخبر إلى الشياطين ". فشد گيو منطقته وذهب من عند الملك، واختار الأبطال الشجعان

من الجيش، وذهب حتى باب مدينة مازندران، ورفع السيف والمقمعة الثقيلة، فلم ينج من سيفه امرأة أو طفل أو شيخ يتعكز على عصاه، وكان يشن الغارات ويحرق البلاد، ولوث المكان بالسم بدلاً من الترياق، ورأى المدينة كالفردوس الأعلى، ورأى لها نصيباً من السعادة والبهجة، والأتباع في كل طريق ومكان لا حصر لهم بأطواقهم وأقراطهم، والجوارى أكثر من هؤلاء بتيجانهن، ووجوههن كالقمر المنير، وفى كل مكان كنز مبعثر من الذهب، والدنانير فى ناحية والجواهر فى ناحية أخرى، وتجمع فيها مالا حصر له من الدواب والأنعام، وكأن هذا المكان هو الجنة. ثم إنهم أعلموا الملك كاوس عن ذلك المكان البهيج وعن تلك العظمة والرفعة فقال: " فليعش سعيداً ذلك الذى قال: إن مازندران هى قرينة الجنة، وكأن المدينة كلها معبد أصنام، وقد تزينت بالحرير الصينى والورود، وكأن الحسناوات هن حوريات الجنة حقاً، وفى وجناتهن حسن رضوان ".

وعندما مر أسبوع توقف الإيرانيون عن الغارة وحلوا مناطقهم واحداً واحداً، ووصل الخبر إلى ملك مازندران فامتلأ قلبه بالألم وغضب لذلك، وكان عنده من الشياطين (سنجه) الذى تألمت روحه وحزن قلبه من هذا الحديث، فقال له: " اذهب إلى الجنى الأبيض مسرعاً كالشمس فى فلكها الدوار، وأخبره أن جيشاً جراراً قد جاء من إيران للإغارة على مازندران، وأنهم أحرقوا بلاد مازندران كلها، وأشعلوا بالحرب نيران الحقد والانتقام، وفى مقدمتهم الملك كاوس وكثير من مقاتلى الجيش الشجعان، والآن إذا لم تغثنا وتنجدنا فلن تجد أحداً حياً فى مازندران ". فلما سمع سنجه الرسالة ذهب وحمل أمر الملك على الفور إلى الجنى الأبيض. وعندما وصل إلى ذلك المهيب أخبره بما سمعه من ذلك المقاتل، وذكر له كل ما قاله الملك وأخبره كذلك ما كان ثائراً وغاضباً منه، فأجابه الجنى الأبيض قائلاً: " لا تكن يائساً من الزمان، ولا تفكر فى جيش ملك إيران ولو

جاء بجيش مقاتل، وسآتي الآن بجيش جرار، وأقتلع قدمه من مازندران ". قال هذا ثم هب واقفاً كالجبل وطاولت رأسه الفلك الدوار. وعلى الجانب الآخر، وصل كاوس مسرعاً إلى مازندران مع جيشه، وعندما وصل الملك إلى ذلك المكان البهيج نصب سرادقاً فى الصحراء، وما أكثر الخيام والسرادقات الحمراء والصفراء التى كانت تحير عيون الناظرين، وعندما أشرقت الشمس على الخيام صار وجه البلاد كبحر الماء، وصارت الأرض كالجنة المليئة بالنعيم من الجياد والرجال المزدانين. وفى داخل السرادق عرش بلورى كأنه يلمع أكثر من مدار الشمس، وجلس الملك كاوس على العرش واضعاً على رأسه التاج الملكى، وجلس فى المكان كبار الجيش الذين كانوا يرشدون الملك فى الخير والشر، وهكذا قال كاوس للعظماء: " أيها العظماء الشجعان، أنتم جميعاً مخلصون لى، وجميعكم فى طاعتى وعلى طريقى. الآن سأمسك بملك مازندران فى يدى، وألحق الهزيمة بالشياطين، إننى لا أرغب فى الحديث إلى ذلك الملك بإرسال رسالة إليه، وعندما تشرق الشمس غداً من مشرقها نباغت مازندران على حين غرة، فلا نبقى على ملكها ولا على جيشه، ونستولى على بلاده من مشرقها لمغربها، ونسحق رؤوسهم بحوافر دوابنا ونظهر قوتنا للشياطين، ونخضع كل تلك الحدود، ونحقق ما فى قلوبنا من أمانى ". فوضع العظماء رؤوسهم على الأرض وأخذوا فى الثناء على روح الملك قائلين: " فلتقصر يد الشر عن الملك، وليكن المكان مخلصاً لك والزمان، كلنا عبيدك ونطيع أمرك يا رب المقمعة والسيف والسهم. كيف يتوقف الجيش من التعب وهم جميعاً تربوا على كنز الملك، كلنا نضحى بالروح من أجل ملك الملوك وسنقاتل قتالاً ملكياً، ولعل الجنى الأبيض الظالم لا يظهر فى ذلك المكان، فهذا الجنى ساحر ماهر، وهو المقدم على شياطين مازندران، فإذا لم يأت إلى هذه المعركة فسوف نقضى على أرواح الشياطين ". وظلوا فى هذا الحديث طوال الليل، وكان الرجل

المحارب يتظاهر بالبطولة. لقد كان كاوس يحلم بأحلام اليقظة فى ذلك اليوم حتى المساء، وحل الليل، وغطت القمر سحابة، فصارت الدنيا كوجه الزنجى الأسود، وكأن العالم بحر من القار، فقد اختفت أنواره كلها. لقد ضرب الجنى الأبيض بخيمة من الدخان الأسود فوق الرؤوس فاسود العالم، وأظلمت العيون، وأمطر من السماء حجارة كثيرة، فتشتت جيش إيران فى الصحراء، وهلك منهم الكثيرون أيضاً، ولم يبق شئ من الحظ المشئوم، وسار الكثير منهم فى الطريق إلى إيران وقد جرحت قلوبهم من فعل كاوس، وعندما انقضى الليل واقترب النهار أظلمت عين الملك العظيم، وأظلمت عيون ثلثى الجيش، وامتلأت رؤوس العظماء بالغضب منه. وهكذا أظلمت عين الملك كاوس، وحل الشر على الجيش من جراء صنيعه، ونهبت كل الكنوز، ووقع الجيش أسيراً، وشاب حظ الملك من بعد الشباب. يجب ذكر القصة كلها حتى يحتار العجب نفسه من العجب.

هكذا قال القائد عندما رأى المشقة والتعب: " إن الوزير النابه أفضل من الكنز، وأسفاه، إننى لم أقبل نصيحة زال فاتح العالم، وأقدمت على الشر ". وعندما انقضى أسبوع فى الشدة والقسوة لم ير أحد من الإيرانيين بعينه أحداً، وفى اليوم الثامن زار الجنى الأبيض قائلاً: " أيها الملك العقيم كشجرة الصفصاف، لقد نلت كل عظمة وسمو، فلماذا قصدت بلاد مازندران؟ لقد رأيت قوتك كالفيل الغاضب، ولم تبسط يدك لأحد. أنت لم تقنع بالتاج والعرش، وخدعت العقل على هذا النحو، لقد فعلت الكثير بمازندران، وقتلت الكثير بمقمعتك الثقيلة، ألم تكن تعلم شيئاً عن الجنى الأبيض الذى يخلى الفلك من النجوم؟ والآن هذا هو جزاء عملك، فهل نال قلبك ما كنت تتمناه؟ لو لم تكن النصيحة مرشدى ودليلى لكنت قد قضيت عليك، ولما أبقيت أحداً من جيشك ولهاجمت ديارك كلها من أولها لآخرها، ولكن لك عهد وميثاق من قوتى منذ

گرشاسب[1] هازم الجيوش، بألا أعتدى على مملكة إيران، وإلا لكنت قد أقمت قيامتها. سأبقى عليكم عندى فى شقاء وحزن حتى ينقضى أجلكم ". لقد كان ذلك الشيطان الظالم يتحدث إلى الملك بغضب وحدة، ثم اختار اثنى عشر ألف محارب من أولئك الشياطين المردة الضاربين بالخناجر وأوكل إليهم حراسة الإيرانيين، وملأ رؤوس العظماء بالحزن والأسف، فقاموا بإحكام القيود على رؤوسهم جميعاً، وعندما انتهوا من تقييدهم وربطهم أعطوهم قليلاً من طعام يلدغ الروح حتى يقضوا حياتهم يوماً بيوم، وبعدئذ سلم كل كنوز الملك والجيش من تاج الياقوت والعرش الفيروزى وكل ما رآه من أوله لآخره إلى (أرژنگ) قائد مازندران، وقال له: " قل للملك لا تأمل فى شئ الآن من الشياطين، فقد فعلت كل ما وجب فعله ووضعت رؤوس الجميع فى التراب، وكل أبطال إيران والملك لن يروا الشمس المضيئة ولا القمر، وأنى لم أقتله خوفاً أو هيبة، بل ليعلم من الدنيا وهادها ونجادها، وسيحل عليه الهلاك فى أنين ومرارة ولا ينتبه أحد لهذا الأمر". فلما سمع أرژنگ قوله توجه إلى ملك مازندران. لقد ذهب ومعه الجيش والغنائم والأسرى والجياد المزدانة، وعاد الجنى الأبيض إلى دياره كشعاع الشمس بعد أن أتم هذا الأمر، وبقى الملك كاوس فى مازندران وكان يقول إن الذنب ذنبى، وكان الجنى يحرس الإيرانيين فى ذل عن طريق شيطان يشد خاصرته لذلك.

رسالة كاوس إلى زال ورستم

وبعدئذ، أرسل الملك المحزون بطلاً كأنه طائر بجناحين، وكان هذا البطل

---

[1]) گرشاسب. (Garshasp)، الجد الأعلى لرستم، وهو بطل كبير من أبطال الأساطير الفارسية، وهناك منظومة خاصة به تسمى (گرشاسب نامه)، نظمت فى القرن الخامس الهجرى، وفيها ذكر لبطولات هذا البطل فى معاركه بالهند والصين وبلاد الروم.

منفصلاً عن الملك والجيش فجاء مسرعاً إلى الملك الذى أرسله إلى بلاد زابل بسرعة كالدخان، إلى دستان بن سام، وقال له: " ما أكثر ما حل علينا من الحظه فقد سقط التاج والعرش فى التراب، والذهب والكنز وذلك الجيش العظيم المزدان كالزهور فى فصل الربيع، كل هذا سلمه الفلك الدوار إلى الشياطين وكأن الريح قد جاءت وحملته، والآن أظلمت العين وتكدر الحظ واضطرب، وانتكس التاج وانقلب العرش، وها أنا متعب حزين فى يد الشيطان الذى سيفصل روحى عن جسدى، وعندما أتذكر نصحك لى أطلق الآهات من كبدى. أنا لم أطعك أيها العاقل فأصابنى الضرر من جراء قلة عقلى، وإذا لم تشد خاصرتك لهذا الأمر فإن نصيبنا جميعاً هو الضرر والخسران ". وذهب الرسول من مازندران على الفور، يطير كالطائر وكأنه الدخان، وعندما وصل مسرعاً إلى دستان بن سام أخبره بكل ما عرفه ورآه وسمعه، فلما سمع منه ذلك تمزق جلده على جسده وأخفى ذلك عن العدو وكذلك الصديق. لقد رأى الشر من بعيد بقلبه المستنير، وما سيحل عليه من الزمان، وهكذا قال دستان بن سام لرستم: " لقد انقطعت الصلة بين السيف وغمده، ولا يليق أن نتبختر ونرعى، وأن نعتنى بأنفسنا من أجل التاج، فملك العالم فى فم التنين، وحل بالإيرانيين الكثير من البلاء والمصائب، والآن يجب عليك أن تسرج رخش لتنتقم بالسيف المقسم للعالم، لقد أعدك الله ورعاك من أجل هذا الوقت والأوان، وأنت يليق بك هذه الأمور الآن، أما أنا فقد زاد عمرى على المائتين من السنين، فعليك أن تنال الشهرة الكبيرة من وراء هذا الأمر، وأن تحرر الملك من البلاء، ولا يليق أن تركن للراحة أو الثرثرة مع هذا العمل الشيطانى، وعليك بإحكام الدرع حول جسمك، وإخلاء الرأس من النوم والوساوس. من ذا يقول أن من ترى عيناه رمحك تكون روحه هادئة مستقرة بعد ذلك، لو حاربت البحار لصارت دماً، ومن صوتك يصبح الجبل وادياً، وستنقلب مظلة أتراك الصين وتنتكس إذا

وضعت أنتِ السرج على حصانك رخش، فلا يجب أن يكون لأرژنگ والجنى الأبيض أى أمل أيضاً فى روحك، وحطم بالمقمعة الثقيلة فقرات عنق ملك مازندران كلها، ولو نلت الشهرة من هذه الحياة فإن الإقبال سينتشر من أسمك وشهرتك، وبعد رحيلك يبقى اسمك، فلتسرع إلى مازندران ولا تنتظر هنا حتى تنير اسم الفارس سام الذى لم يكن فى الدنيا شهير مثله، وبعدئذ يطيعك العالم، وترتعد الشياطين كذلك من سماع اسمك ".

أجابه رستم قائلاً: " إن الطريق طويل، فكيف أذهب طالباً للثأر؟ لقد سار فيه الملك ستة أشهر حتى وصل بعدها إلى مازندران، كيف لمثلى الوصول؟ وكيف يعجز الأصل والنسب وهو لطيف من أصل كيقباد ". فقال له زال: " هناك طريقان لهذه المملكة، فى كل منهما مشقة ووبال، أولهما طويل، وهو الذى سلكه كاوس، والآخر تقطع مسافته فى أسبوعين، وهو ملئ بالشياطين والأسود والظلمات، وتظل عينك حائرة فيه مضطربة، فاختر الطريق القصير، وشاهد العجائب، وعونك هو الله خالق العالم، ورغم أنه شاق فإنه ينتهى، وستقطعه أقدام رخش الميمون، وما إن يتغلب الليل المظلم على النهار المضئ حتى أتضرع إلى الله الطاهر لعلى أرى ثانية وجهك وقامتك ورأسك وذراعك وقبضتك ومقمعتك، ولو جعل الله إله العالم هلاكك على يد الجنى فمن ذا الذى يستطيع أن يمنع هذا الأمر، إن كل من يأتى يجب أن يرحل، لن يبقى أحد فى هذه الدنيا، وسينادونه ولو طال بقاؤه. إن من يمتلك العالم بالشهرة العظيمة لا يحزن عند الرحيل ". فقال رستم لأبيه الميمون: " سأشد خاصرتى بالمنطقة تنفيذاً لأمرك، ولكن العظماء من القدماء لم يروا الصواب فى أن تخطوا الأقدام إلى الجحيم، ولا يأتى إلى الأسد المفترس من كان لا يمل من جسده، والآن ها أنا قد شددت المنطقة وعزمت على الرحيل، ولا أرغب فى غير الله العادل معيناً، وسأضحى بالجسد والروح من أجل الملك، وسأقتلع رأس السحرة من جذورها،

وسأشد المنطقة على خاصرتى، وسأحضر كل من كان حياً من الإيرانيين، ولن أبقى على أرژنگ ولا على الجنى الأبيض، ولا على سنجه و(پولادغندى) و (بيد)، ولن يحرك رستم قدمه عن رخش بسم الله الواحد خالق العالم، لعلى ألقى بالنير على كاهل أرژنگ وأقيد يده كالحجر، وألقى برأس پولاد ومخه تحت الأقدام، وتحرك حوافر رخش الأرض من مكانها ".

ذهاب رستم إلى مازندران

عندما أطلت الشمس برأسها من وراء الظلام، وصار العالم منها كالحديقة فى النوروز، لبس رستم الدرع ورفع قامته، وأثنى عليه زال كثيراً، قائلاً: " فلتكثر آمالك فى الدنيا ولتكن مذيباً لجسد أعدائك، وتمتد شهرتك دائماً فى كل مكان، ويخطو رخشك بأقدامه على الفلك، وليكن ظهيرك هو الله العادل، ولتنقلب رأس أعدائك ".

لقد امتطى جواده رخش كأنه فيل، وجهه يستحق الجمال وقلبه ثابت أيضاً، وجاءت رودابه ووجهها غارق فى الدموع، وكانت تبكى وتئن ويدها على وجهها. وقالت رودابه القمرية الوجه لرستم: " أنت تتجه إلى طريقك وتدعنى هنا فى همى وحزنى، أستحلفك بالله ماذا تريد وتأمل؟ ". فقال لها : " أيتها الأم الطيبة، أنا لا أختار هذا الطريق برغبتى، هذا هو نصيبى من الزمان، فاستودعى الله روحى وجسدى ".

ثم إنهم تقدموا لوداعه، فمن الذى كان يعلم هل سيراه ثانية أم لا. هكذا يمر الزمان، والرجل الحكيم لا يحصى لحظاته، ولتعلم أن الدنيا قد تغيرت وتبدلت مع كل يوم سوء انقضى عنك، وكل يوم تكون سعيداً فيه فإن نفس الطبع يكون للدنيا كذلك.

الخطوب السبعة

خرج ذلك البطل في منتصف النهار من عند أبيه البطل المنير للدنيا، وكان يقطع مسيرة يومين في يوم واحد، وكان يعتبر الليل المظلم نهاراً، وعلى هذا النحو قطعت حوافر رخش الطريق في النهار المضيء والليل الحالك السواد، ولما احتاج جسده إلى الطعام وشعر بالاضطراب عرضت له صحراء مليئة بالحمر الوحشية، فهمز جواده رخش همزة شديدة، واشتد ركض الحمار الوحشي مع ركضه. إن الوحوش والضواري لا تنجو من الوهق ومن حوافر رخش والفارس رستم. لقد ألقى ذلك الأسد بوهقه الملكي فأوقع فيه حماراً وحشياً، وأسقط ذلك الحمار الوحشي عندئذ وجره إليه، وجاء إليه كالأسد الكاسر، ثم قدح ناراً من نصل السهم وأحرق فيها الشوك والقش والحطب، وشواه على تلك النار المتوهجة من بعد أن أفقده قدرته وروحه، ثم أكل منه وألقى بعظامه بعيداً، وكان هذا هو نفسه الإناء وهذا هو البساط ثم نزع اللجام عن رأس رخش قليلاً، وأطلقه يرعى في المرج، وجعل من القصب فراشاً لنومه، واطمأن في مكان الخوف والوحشة.

الخطب الأول:

عراك رخش والأسد

نام رستم وسيفه تحت رأسه، ووضع رأسه في هدوء كالأسد، وكان في هذه الأجمة عرين أسد، حتى إن الفيل لم يكن يقدر على خطف قصبة منه، وعندما مضت طائفة من الليل جاء الأسد المفترس، جاء ذلك الجسور إلى عرينه، فرأى على القصب رجلاً نائماً كالفيل، ورأى فرساً ثائراً يقف عنده، فقال ينبغي أن أغلب الفرس أولاً إذا أردت أن يقع الفارس في قبضتي، وجاء مسرعاً إلى رخش المنير، فهب رخش عندئذ كالنار الحارقة، ووثب بقائميه وضربه على

رأسه، ومزق ظهره بأسنانه الحادة، وكان يضربه بالأرض حتى مزقه إرباً إرباً، وجعل منه حيواناً بائساً بتلك الحيلة، وعندما استيقظ رستم ذو المخالب الحادة رأى الدنيا وقد ضاقت على الأسد المفترس، فقال لرخش: " أيها الذكي، من قال لك أن تقاتل الأسد؟ كيف كنت أحمل هذا الدرع وهذا المغفر لو كنت قد قُتلت أنت على يده؟ وكيف كنت أحمل الوهق والقوس والسيف والمقمعة الثقيلة إلى مازندران؟ إنني لا أرى جواداً وافر النشاط مثلك في السرعة والحدة والليونة والأصل، لماذا لم تأت ناحيتي وتصهل فيصل صهيلك إلى مسامعي، فلو كنت قد انتبهت من نومي لكفيتك مقاتلة الأسد ". قال هذا ثم نام ذلك الشجاع الشهير والبطل الجسور واستغرق في النوم والراحة.

الخطب الثاني:

عطش رستم ومصادفته ينبوعاً

عندما أطلت الشمس من جبل الظلمة استيقظ البطل رستم وقد مل النوم، ومسح بيده على جسد رخش وأسرجه وذكر اسم الله المحسن، وامتطى جواده رخش المنير كعاصفة الغبار، وتوجه ذلك البطل إلى العقبة الثانية، فعرض له طريق لا مفر منه، ووجب عليه السير فيه حائراً. الصحراء لا ماء فيها وهي شديدة الحرارة، يتمزع جسد الطائر منها قطعة قطعة، وكذلك اشتعلت الصحراء بالحرارة وكأن النار قد أمسكت بها، وعجز جسد رخش وكذلك لسان الفارس الفصيح بسبب الحرارة والعطش فترجل عن فرسه ورمحه في يده، وكان يمشي مهرولاً كالثمل، ولم يجد حيلة للنجاة فتوجه إلى السماء عندئذ، وقال: " إلهي أيها الحكم العادل، يا من تقضي بالشقاء والمحن، إذا كان رضاك في شقائي فإن كنزي في هذه الدنيا قد امتلأ وفاض، إنني أسعى لعل الله الخالق يحفظ الملك كاوس، وينقذ رب العالم الإيرانيين من مخالب الشيطان سالمين، فهم المذنبون

لديك والآثمون وهم عبيدك وتابعوك، فحررهم على يدى، فقد ضحيت الآن بروحى وجسدى من أجلهم، أنت قلت: أنا الحكم العادل، وأنا المعين للمظلوم فى الشدة، فلو كنت ترى العدل فى عملى فلا تجعل أمرى مظلماً حالكاً، وكن عونى فى هذا الأمر، ولا تحرق قلب زال الهرم بسببى، ولا تضع جهد جيشى هذا، واجعلنى أنا وجيشى وبلادى من السعداء ". كان رستم الضخم الجسم يحدث نفسه وقد تذكر القبر والكفن قائلا: " لو كان لى أن أشارك جيشى لذهبت كالأسد إلى قتالهم، ولقلبت الدنيا رأساً على عقب بحملة واحدة، ولانتزعت النفس من أرواحهم، ولو كان جبل (جنج) هو الذى تقدم لى لما ثبت لحملة واحدة منى، ولحطمت ذلك الجبل بمقمعتى الثقيلة، ولكان نصيبه الهزيمة من الرجولة والشجاعة، ولو كان نهر جيحون لما خرجت السفينة من مياهه، ولردمته بالتراب فى الحال بقوة الله المالك الطاهر، ولكن ما فائدة الشجاعة والقوة وقد عميت عين الحظ النافع. ماذا أفعل مع هذا الجسد وذاك العطش، وكيف أتغلب على موت الروح ". فلما فرغ من حديثه هذا، صار جسده الضخم ضعيفاً من العطش وحار واضطرب، وسقط رستم على ذلك التراب الحار وقد تشقق لسانه من العطش. وفى ذلك الوقت كان هناك حمل جميل العجز يقطع الطريق أمام البطل رستم، فتولدت الفكرة من ذهاب هذا الحمل، فقال لنفسه: " فى هذا المكان نبع، فأين هو؟ ". وهكذا تجلت رحمة الله الخالق فى ذلك الوقت، فاتكأ رستم على سيفه بيده اليمنى، وهب واقفاً بقوة من الله، وتعقب الحمل وقد أمسك بسيفه فى قبضته، والحبل فى اليد الأخرى، وكان الحمل يسير ووراءه البطل وكان يعده يوماً مباركاً، وظهرت له عين ماء فى الطريق، عند المكان الذى وصل إليه الحمل العظيم، فتوجه البطل رستم إلى السماء، وقال: " إلهى أيها الحكم الصادق، إن من يغضب من عطائك يا إلهى لا يجعل عقله فى محله، فهذه العين ليس عليها أثر لقدم حمل، وليس ذلك الحمل لى ".

عندما يضيق عليك الأمر فلا تلجأ إلا إلى الله الطاهر، فليس لمن يغضب من عطاء الله الواحد عقل في رأسه. ثم إن رستم أثنى كثيراً على ذلك الحمل، قائلاً: " لا أصابك الفلك الدوار بالأذى والضرر، وليخضر لك العشب والوادي والصحراء ولا خطر ذكرك على قلب الفهود الضواري، وكل من يقصدك بالسهم والقوس يتحطم قوسه وتظلم روحه، فقد بقي الجسد الضخم حياً بفضلك وإلا لغرق في أفكار الكفن، ولبقي في مخالب الذئب وهو الذي لا يحتويه جوف التنين الهائل، ولصار إرباً إرباً في مخالب الوحوش، ولوصل الخبر عن رستم إلى العدو ". وعندما كف لسانه عن الثناء والمديح نحى السرج عن رخش السريع، وغسل جسده كله بذلك الماء الطاهر فصار يلمع كالشمس، وعندما ارتوى عزم على الصيد، واستعد وملأ جعبته بالسهام، وألقى بحمار وحش كالفيل المفترس، وسلخ جلده وقطع أطرافه وشق خاصرته وأشعل ناراً شديدة كالشمس المتوهجة، ثم رفعه من الماء وشواه في النار، ثم تناوله من النار وأكله، وأخذ في تنظيف العظام بمخالبه، ثم جاء إلى النبع المضيء، وعندما ارتوى من الماء قصد إلى النوم، وقال رستم البطل لرخش الميال للحرب: " لا تقاتل أحداً ولا تسالمه أيضاً، فلا تقاتل أنت شيطاناً ولا أسداً ولو جاء العدو ناحيتي يركض، فقد خلقني الله للحرب والنزال، وخلقك أنت للسرج والقيد ". ثم نام واستراح ولم يفتح شفتيه، ورخش يتبختر ويرعى حتى منتصف الليل.

الخطب الثالث:

رستم يقتل التنين

جاء من الصحراء تنين لا ينجو الفيل من مخالبه، وكان مستقره في ذلك المكان، ولم يكن الشيطان يعرض له في الطريق خوفاً منه. ماذا أقول عن ذلك التنين الغاضب الذي كان طوله يصل إلى ثمانين ذراعاً من رأسه إلى ذيله، ولم

يكن أحد من الشياطين والفيلة والأسود الكاسرة يستطيع المرور فى ذلك المكان، وكذلك فإن من أتى لا ينجو من مخالب التنين الهائل الشرير. لقد جاء ورأى الفارس العظيم نائماً ورأى فرساً ثائراً يقف عنده، وفكر، كيف جاء من يجرؤ على الخلود للراحة فى هذا المكان، وتوجه إلى رخش المنير، فجرى رخش ناحية الباحث عن التاج، وضرب الأرض بسنابكه النحاسية، وثار كالرعد ونثر أنفاسه الحارة، فلما استيقظ البطل رستم من النوم امتلأت رأسه العاقلة بالغضب والغيظ، ونظر فى أطراف الصحراء، وكان ذلك التنين الغاضب قد اختفى، فغضب من رخش بشدة لأنه أيقظه من النوم، وعندما استغرق فى النوم مرة ثانية خرج ذلك التنين من الظلام، فجرى رخش بالقرب من رستم، وكان يثير التراب وينثره، فاستيقظ الرجل النائم للمرة الثانية، وثار واحمرت وجنتاه، ونظر فى الصحراء يميناً وشمالاً فلم ير بعينه إلا ظلام الليل، فقال لذلك الرحيم اليقظ رخش: " إنك لن تخفى ظلمة الليل، ها أنت تحرم رأسى النوم، وتعجلت فى إيقاظى، ولو أيقظتنى هكذا ثانية فسأقطع رأسك بالسيف البتار، وأذهب إلى مازندران ماشياً، وأحمل خوذتى وسيفى والمقمعة الثقيلة، لقد قلت لك إذا جاءك الأسد مقاتلاً فإننى سآتى به فى قبضتى من أجلك، ولم أقل لك تعجلنى الليلة، فابق طالما أنا لم أقم من النوم ".

وفى المرة الثالثة وضع رأسه للنوم، وتغطى بدرع من جلد النمر، وصرخ التنين الغاضب مرة أخرى وكأن أنفاسه نيران تضطرم، وعندئذ ترك رخش مرعاه، ولم يستطع الذهاب عند البطل. لقد كان قلبه منشطراً من هذه الحيرة شطرين، فقد كان خائفاً من رستم وكذلك من التنين، ولم يسترح قلبه من حبه لذلك العظيم، فجاء إلى رستم مسرعاً كالريح، وثار وهاج وأثار التراب حتى تشققت الأرض من حوافره، فلما استيقظ رستم من نومه الجميل ثار على ذلك الجواد المطيع، وهكذا قضى خالق الضياء فى العالم ألا تخفى الأرض ذلك

التنين، ورآه رستم في تلك الظلمة فسل سيفه البتار على الفور من غمده، وصرخ كأنه سحابة الربيع، وملأ الأرض بنار القتال، وعلم أن ذلك التنين ساحر، وأنه عدو يقصد الشر ببني البشر، فقال لذلك التنين: " أخبرني باسمك، فلن ترى بعدئذ في الدنيا ما تتمناه، ولا ينبغي أن تخرج روحك من جسدك المظلم على يدي بلا اسم ". فقال التنين المخيف القبيح: " لا أحد ينجو من مخالبي، وهذه الصحراء من أولها لآخرها أرضي وسماؤها العالية هوائي، ولا يستطيع العقاب التحليق فوقها، ولا يرى النجم أرضها في منامه ". ثم قال له التنين: " ما اسمك؟ فإن أمك ينبغي أن تبكي عليك ". فأجابه قائلاً: " أنا رستم بن دستان بن سام، ومن نسل نيرم، أنا جيش منتقم بمفردي، وأطوي الأرض برخش الشجاع، وسترى مهارتي في القتال، وسأجعل رأسك الآن في التراب ". فاشتبك معه التنين في قتال، وفي النهاية لم ينج منه. وهكذا اشتبك مع البطل الضخم الجسم، فصار رستم وكان الهزيمة قد حلت به، فلما رأى رخش قوة جسد التنين الذي اشتبك مع رستم واهب التاج حك أذنه، وأصابته الدهشة، واقتلع كتفي التنين بأسنانه، ومزق جلده كأنه أسد، حتى حار فيه البطل الشجاع، وضربه بالسيف وألقى برأسه بعيداً عن جسده، وانساب الدم منه كالنهر، واختفت الأرض من تحته وكأن عيناً من الدم قد انفجرت منها، وعندما نظر رستم إلى ذلك التنين الغاضب وإلى ذلك العنق وتلك الأشداق والأنفاس الحارة ورأى هوله ومهابته، كان ينظر إليه في دهشة وتعجب، ورأى الصحراء كلها تحته خائفة، والدم الحار يجري على التراب المظلم، وظل البطل رستم حائراً متعجباً منه، وكان يذكر اسم الله. ثم جاء إلى الماء وغسل رأسه وجسده فالدنيا لم تنج إلا بقوة حافظ العالم، وناجى ربه قائلاً: " أيها العادل، لقد وهبتني العقل والقوة والمجد، ويستوي عندي الشيطان والأسد والفيل، وتستوي الصحراء القاحلة ونهر النيل، وسواء كان الأعداء كثيرين أو قليلين فإن الأمر يستوي أمام

عينى عندما أغضب ". وعندما انتهى من مدح الله والثناء عليه جاء برخش وأعده للرحيل.

الخطب الرابع:

قتل رستم لامرأة ساحرة

امتطى رستم جواده رخش، وسار فى طريقه، ووصل متبختراً إلى مكان السحرة، وكان يقوده مسرعاً فى طريقه الطويل، وعندما نزلت الشمس المضيئة من علياتها، رأى الشجر والعشب والماء الجارى، على نحو ما يجب أن يكون مكان الرجل الشاب، ورأى عيناً كعين الديك البرى، وعندها كأس ذهبى ملئ بالنبيذ، وهناك بساط عليه حمل مشوى وخبز، واجتمع عليها الملح والحلوى، فلما رأى رستم ذلك المكان كما ينبغى أن يكون أخذ فى مدح الله والثناء عليه، وجاء إلى الحمل والخبز متعجباً، ونزل عن فرسه ونزع عنه السرج، وكان هذا طعام السحرة، فلما وصل رستم اختفى الشيطان من صوته، فجلس ذلك الميمون القدم على عين الماء وملأ كأساً ياقوتية بالخمر، وكان مع الخمر عود لطيف، وكانت الصحراء كأنها بيت فرح وسرور، فضم البطل رستم العود إلى صدره، وأخذ فى العزف والغناء، قائلاً: " إنه صوت رستم العاجز الذليل، الذى نصيبه من أيام السعادة قليل، إن ميدانه كل مكان فيه حرب ونزال، وبستانه الصحراء والجبال، وهو فى حرب دائمة مع الشيطان والتنين الهائل، ولا يجد الآن خلاصاً من الشيطان والصحراء، لم يجعل الزمان نصيبى الخمر والكأس وأريج العطور والمروج، فأنا دائماً فى حرب مع التماسيح أو فى قتال مع النمور ". ووصل الغناء إلى مسامع امرأة ساحرة، فسمعت شدو رستم وعزف الأنغام، فزينت وجهها كالربيع، رغم أنها لم تكن جميلة الصورة، وجاءت إلى رستم غارقة فى الألوان والطيب وسألته عن حاله وجلست بالقرب منه، وأخذ رستم البطل فى

ذكر الله، وأثنى عليه وامتدحه لأنه وجد مائدة فى صحراء مازندران، ووجد الخمر والأنغام مع شابة تشاركه الشراب، ولم يكن يعلم أنها ساحرة ماكرة، وأنها شيطانة متخفية بالزينة والألوان، ووضع فى كفه كأساً من الخمر، وذكر اسم الله العادل المحسن، فلما هتف باسم رب الشمس تغير وجه الساحرة وتحول، فروحها لم تكن تحتمل الحمد والتمجيد، ولم يكن للسانها القدرة على الدعاء والتسبيح، واسود وجهها عندما سمعت اسم الله، فنظر إليها البطل رستم عندئذ وأسرع بإلقاء وهقه، وقيد رأس الساحرة على الفور، وسألها قائلاً: " أى شئ تقولين؟ أريني وجهك كما يكون، فصارت فى القيد عجوزاً شوهاء، مليئة بالتجاعيد والطلاسم والتعاويذ والقيود، فشق خاصرتها بالخنجر نصفين، وملأ قلوب السحرة بالخوف والهلع، ثم توجه من ذلك المكان إلى طريقه على نحو ما يكون الرجل الباحث عن الطريق.

الخطب الخامس:

وقوع (أولاد) فى أسر رستم

كان رستم يجد فى المسير حتى وصل إلى مكان لم ير للدنيا فيه نوراً، وكان الليل المظلم كوجه العبد الزنجى، ولم تكن النجوم ظاهرة ولا القمر المنير، وكانت الشمس وكأنها فى الأسر، والنجوم فى فخ الوهق، فأطلق العنان لرخش، وتوجه به فلم ير وهاداً ولا نجاداً من شدة الظلام، ووصل من هناك إلى حيث النور، فرأى الأرض مخضرة كالحرير وكلها حقول، وصارت الدنيا شابة بعد المشيب، وكلها خضرة ومياه جارية، وكانت الملابس كلها على جسده كالماء، وكان فى حاجة إلى الراحة والنوم، فخلع جلد النمر من على صدره، وكان مغفره غارقاً فى العرق، وترك كليهما فى الشمس، وأسرع إلى النوم والراحة، وخلع اللجام عن رأس رخش قليلاً، ثم أطلقه يرعى فى الحقول والمزارع،

ولبس الخوذة وجلد النمر عندما جفا، وافترش العشب كالليث، ووضع الدرع تحت رأسه والسيف أمامه، ووضع يده على قبضته، وعندما رأى حارس الصحراء الجواد يرعى فى الزرع أسرع بإطلاق لسانه بالحديث فى الحال، وتوجه إلى رخش ورستم، وضرب قدمه بعصا كانت معه بحدة، وعندما استيقظ رستم الضخم الجسم من النوم قال له الحارس: " أيها الشيطان، لماذا أطلقت الجواد فى الحقول، وحملت ما لا طاقة لك به من ألم وشقاء؟ ". فتكدر الرجل العاقل من قوله، وهب من مرقده وأمسك بأذنيه، وضغط عليهما واقتلعهما من جذريهما، ولم يوجه له الحديث بخير أو بشر، فأمسك الحارس على الفور بأذنيه، وبقى متعجباً منه وهو يصرخ، وكان البطل فى تلك الديار هو (أولاد)، وهو شاب عظيم شجاع، فذهب إليه الحارس صارخاً شاكياً، وقد غرق صدره بالدم وتلطخت به يداه وأذناه مقلوعتان، وقال له: " هناك رجل كالشيطان الأسود، درعه من جلد النمر وخوذته من الحديد، هو شيطان من رأسه حتى قدميه، أو تنين نائم فى دروعه، لقد ذهبت كى أبعد جواده عن الزرع، فلم يتركنى إلى الجواد والزرع، لقد رآنى فنهض ولم ينبس ببنت شفه، واقتلع أذنى ثم نام فى مكانه ".

لما سمع أولاد ذلك هب من مكانه، وجاء مسرعاً كالدخان من حرقة قلبه. كان أولاد يطوف فى المرج مع المشاهير من أجل الصيد، وعندما سمع ذلك الحديث من الحارس، ورأى آثار أقدام رخش فى المصيد، ثنى عنانه وتوجه مع العظماء إلى حيث كان البطل رستم، حتى يرى أى رجل هو، ومن أجل أى شئ فعل معه هذا الشر، وعندما اقترب من البطل المحارب توجه البطل رستم ناحية جواده رخش، وامتطى صهوة الجواد، وسل السيف البتار، وجاء كالضباب المزمجر، وعندما اقترب كل منهما من الآخر، كشف كل منهما للآخر عن سره، قال له أولاد: " ما أسمك؟ وأى رجل أنت، ومن هو ملكك وملاذك؟ لم

يكن يجب العبور من مردة الشياطين المقاتلة إلى هذا المكان، ولماذا اقتلعت أذن هذا الحارس وأطلقت ذلك الجواد فى الزرع؟ الآن سأجعل الدنيا سوداء عليك، وسألقى بمغفرك على التراب ". فقال له رستم: " اسمى السحاب، لو كانت السحابة بقوة الليث، إن الرمح والسيف يثمران، ويلقيان برؤوس العظماء جانباً، ولو مر اسمى على مسامعك لتجمدت أنفاسك وروحك والدم فى قلبك، ألم يصل إلى مسامعك فى أى محفل ذكر قوس البطل الضخم الجسم ووهقه، إننى أسَمى كل أم تلد ولداً مثلك خائطة أكفان ونائحة ثكلى، أتنطلق أنت إلى بهذا الجيش، وترفع المقمعة إلى السماء ". ثم إنه سحب سيف البلاء من غمده، وعلق الوهق فى السرج، وتوسطهم كالأسد بين القطيع، وقتل كل من كان حوله، وألقى بهم اثنين اثنين فى ذلة بطعنه واحدة من سيفه المصقول وهو وحده، وجعل رؤوس العظماء فى الأرض بضرباته وألقى برؤوس الشجعان تحت الأقدام، وانهزم أولئك العسكر من ذلك البطل، وذهبوا فارين وقد أظلمت روحهم، وامتلأ الوادى والصحراء بغبار الفارس، وتشتتوا فى الجبال، وذهب رستم كالفيل الغاضب وعلى ذراعه الوهق ذو الستين طية، وعندما اقترب رستم من أولاد أظلم نهار صاحب التاج، وألقى رستم بالوهق الطويل فوقعت رأس العظيم فى ثنية الوهق، ونزل من على الجواد وقيد يديه، وركب هو وساقه أمامه، وقال له: " لو صدقتنى القول ولم أجد منك شيئاً من الكذب وأرشدتنى إلى مكان الجنى الأبيض، وكذلك مكان پولادغندى و بيد وإلى المكان الذى حبس فيه الملك كاوس، ذلك الرجل الذى أرشد لهذه الشرور، لو أرشدتنى وأظهرت لى الحقيقة ولم تجعل فى الحق نقصاناً فإننى سأنقل ذلك التاج وهذا العرش وتلك المقمعة الثقيلة من ملك مازندران إليك، وستكون ملكاً على هذه الديار إذا لم تجعل فى أمرك كذباً، وإذا كذبت فى قولك فسأجرى من عينيك نهراً من الدم ". فقال له أولاد: " دع عن رأسك الغضب، وافتح عينيك تماماً، ولا تجعل جسدى بلا روح

عبثاً، فسوف تجد منى إجابة على كل ما تسأل، وسأدلك على بيت بيد والجنى الأبيض ما دمت قد بشرتنى، وسأرشدك إلى المكان الذى حبس فيه الملك كاوس، وأرشدك إلى المدينة والطريق، فاعلم أيها البطل الممدوح الشيطانى القلب، يا من جعل الله خلقتك من طينة عظيمة أن هناك الآن مائة فرسخ مباركة الخطوات حتى تصل إلى الملك كاوس، ومن هناك إلى الجنى الأبيض مائة فرسخ، وتجدها طريقاً فيه الصعوبة والشر، وهو مكان مخيف يقع بين الجبلين، ولا تطير العنقاء فى سمائه، ووسط المائتين آبار وحفر عجيبة، ولا يمكن قياسها بالمسير، وهناك اثنا عشر ألف شيطان مقاتل يقومون بالحراسة على الجبال ليلاً، وقائدهم هو پولادغندى، وحارسهم هو بيد وسنجه، وقائد مردة الشياطين هو الجنى الأبيض الذى يرتعد منه الجبل كشجرة الصفصاف، وستجد له جسداً كأنه جبل، وصدره وكتفه وعنقه عشرة حبال، وأنت بما لك من عنق ويد وعنان وسيف قاطع ومقمعة ثقيلة، وبهذا القوام والطول وهذا الفعل والعمل، لا يستحسن أن تقاتل هذا الشيطان، فهناك صحراء مليئة بالصخور ستعبرها، وهى التى لا يستطيع الغزال عبورها، وهناك نهر ماء أمامك إذا عبرت، يزيد عرضه على فرسخين، وهناك حارس هو شيطان تطيعه كل المردة من الشياطين، ومن تلك الناحية من بزجوش حتى أصحاب الأرجل اللينة[1] ثلاثمائة فرسخ، والطريق من بزجوش إلى مدينة مازندران طريق وعر وفراسخه طويلة، والفرسان منتشرون فى المملكة، وهم ألوف الألوف فيها، وهم جند أصحاب سلاح ودراهم، ولا ترى واحداً منهم غاضباً مهموماً، وهناك ألف ومائتا فيل محارب، ليس فى المدينة مكان خال بسببهم، وأنت بمفردك وسوف يسحلك المبرد الشيطانى ولو كنت من

---

[1]) أصحاب الأرجل اللينة أو الجلدية هم سكان منطقة فى نواحى مازندران، ويرى البعض أنهم أفراد قبيلة من قبائلها، وتذكر الشاهنامة أن السبب فى هذه التسمية هو أن للرجل فيهم كان له رجلان من الجلد.

حديد ". فضحك رستم من قوله، وقال له: " لو رافقتنى فى الطريق لرأيت ماذا يكون من هذا الرجل الضخم الجسم الواحد لهؤلاء القوم المشاهير، فبقوة الله المنتصر، وبالحظ والسيف والسهم والمهارة، عندما يرون قوة صدرى وعنقى وضربات مقمعتى فى القتال ستتمزق أقدامهم وجلودهم من الرعب، ولن يعرفوا العنان من الركاب، فتحرك ودلنى الآن على تلك الناحية التى فيها الملك كاوس ". قال هذا ثم امتطى رخش السعيد، وأولاد يركض مسرعاً كالريح، ولم يسترح فى الليل المظلم ولا فى النهار المنير، وقاد جواده حتى جبل أسبروز، إلى ذلك المكان الذى عسكر فيه كاوس، وأصابه فيه الشر من الشيطان والساحر، وعندما انقضى شطر من تلك الليلة المظلمة علا الصياح وارتفع صوت الصنج، فقد أشعلوا النار فى مازندران، وأشعلوا الشموع فى كل مكان، فقال البطل رستم لأولاد: " ما هذا المكان الذى تشتعل فيه النيران من اليمين والشمال ". فقال : " إنها بوابة مدينة مازندران حيث لا يستطيع القادة پولاد و أرژنگ وبيد وكل أبطال الجنى الأبيض النوم فى ثلثى الليل، فهو الشجرة التى تطاول السحاب، والنجوم تصطف فى صف كالجبل، وفى ذلك المكان أرژنگ الجنى الذى يطلق صرخاته وصيحاته فى كل مكان ". عندئذ نام رستم المحارب حتى أطلت الشمس المضيئة فربط أولاد فى شجرة، وشد وثاقه بوهقه بإحكام.

الخطب السادس:

رستم يقتل الشيطان أرژنگ

عندما أطلت الشمس من فوق قمة الجبل، وزادت العالم حسناً وجلالاً، استيقظ البطل الواهب للتاج من النوم، وذهب من هناك إلى رخش، وألقى بمقمعة جده على سرج الجواد، وذهب ثابت الجنان وهو يمتلئ حيلة ومهارة، وكان مغفره الملكى على رأسه غارقاً فى العرق، وكذلك الدرع الجلدى على صدره، وتوجه

إلى القائد أرژنگ، وعندما جاء البطل المحارب إلى العسكر صرخ بين الجميع صرخة كأنها شقت البحر وصدعت الجبل، فهب الشيطان أرژنگ خارجاً من الخيمة عندما وصلت تلك الصرخة إلى مسامعه، فلما رآه رستم حث جواده وجاء إليه كالنار المحرقة، وأمسك البطل الشجاع برأسه وأذنه وعنقه، واقتلع رأسه عن جسده كالأسد، ثم ألقى برأس الشيطان المخلوعة عن جسده غارقة فى الدماء ناحية أولئك القوم. فلما رأت الشياطين مقمعته تمزقت قلوبهم من مخالبه، وفر الأب والابن على السواء إلى الطريق، ولم يتذكروا شيئاً عن ديارهم وبلادهم، وسل رستم الضخم الجسم سيف الانتقام، وقضى على ذلك الجمع من الشياطين، وعندما غربت الشمس المنيرة للدنيا جاء مسرعاً إلى جبل أسبروز، وفك قيود الوهق عن أولاد وجلس الاثنان تحت شجرة عالية، وسأل البطل رستم أولاد عن الطريق إلى المدينة التى كان فيها الملك كاوس، وعندما سمع منه توجه إليها مسرعاً وأمامه الباحث عن الطريق يجرى على قدميه، فلما وصل واهب العرش إلى المدينة أخذ رخش فى الصهيل كالرعد، وعندما سمع الملك كاوس صوته وعلم بدايته وخاتمته قال للإيرانيين: " لقد انقضى عهد تعاستنا، لقد وصل صهيل رخش إلى مسامعى فتجددت روحى وانشرح قلبى من صهيله، لقد صهل صهيله هذا فى عهد قباد، عندما قاتل ملك الترك[1]، كان الجنود يقولون إن الملك كاوس هلكت روحه من قيوده الثقيلة، وذهب العقل من رأسه وفقد حكمته ومجده وكأنه يتحدث عن حلم رآه، إننا ليس لنا حيلة فى هذا القيد الشديد، فقد أدار لنا الحظ ظهره، وكان الإيرانيون فى هذا الحوار والجدل حينما

---

[1]) المقصود هنا هو ملك توران، أفراسياب التورانى، وهو البطل التورانى الكبير الذى خاض المعارك الكثيرة ضد إيران، وكانت أول مواجهة له مع رستم فى عهد كيقباد، وكان رستم شاباً صغير السن، وأوشك على قتل أفراسياب لولا أن انقطعت سيور منطقته وسقط على الأرض من يد رستم فأنقذه أتباعه وفروا هاربين.

كان البطل قد شد المنطقة على خاصرته، وجاء إليه فى تلك اللحظة ذلك البطل المشعل للنار والمقاتل، وعندما اقترب رستم الضخم الجسم من كاوس تجمع كل العظماء، مثل گودرز و طوس و گيو البطل، و گستهم و شيدوش و بهرام الأسد[1]، فصرخ كثيراً، وسجد له، وسأله عن الصعاب الطوال، فضمه الملك كاوس إلى صدره، وسأله عن زال وعن مشقة الطريق، وقال له: " يجب إخفاء رخش فى مكان خفى عن هؤلاء السحرة، فعندما يصل الخبر إلى الجنى الأبيض بأن الدنيا قد خلت من أرژنگ وأن ذلك الضخم الجسم قد جاء إلى كاوس، سيتجمع كل المردة من الشياطين، وتصبح كل مساعيك بلا فائدة وتمتلئ الدنيا بجيش من الشياطين، فعليك الآن أن تتجه إلى مكان الجنى، وألق بالجسد والسيف والسهم فى المشقة، فإذا كان الله الطاهر معينك فستلقى برؤوس السحرة فى التراب، ويجب أن تمر على سبعة جبال، وفى كل مكان جماعات جماعات من الشياطين، وسيعرض لك غار مخيف، وهو كما سمعت ملئ بالوحشة والرعب، والعبور إليه يكون من أمام مردة شياطين الحرب، وهم جميعاً مستعدون للقتال كالنمور، وفى الغار مقر الجنى الأبيض، الذى يقع العسكر منه بين الخوف والرجاء، فلعلك تستطيع القضاء عليه، فهو قائد الجيش وظهيره، لقد أظلمت عيون الجيش من الحزن، وعجزت عينى من الظلام، ولقد رآها الأطباء وبشرونى بالأمل فى دم قلب الجنى الأبيض ومخه، وقال لى طبيب حكيم: عندما تجعل من دمه قطرات كدمع العين وتقطر ثلاث قطرات فى العين تخرج الظلمة تماماً مع الدم، وأملى فى عفو الله الخالق ورحمته أن تقضى على ذلك الجنى المحارب ". فعزم البطل الضخم الجسم على الحرب وهم بالرحيل من ذلك المكان، وقال للإيرانيين: " كونوا يقظين، فها أنا قد قصدت الجنى الأبيض، وهو

---

[1] گستهم (Gostaham) وشيدوس وبهرام، مجموعة أخرى من الأبطال الذين يذكرون دائماً وقت الحروب.

فيل محارب ومحتال ويتجمع حوله الكثير من الجنود، ولو ثنى ظهرى الآن وأحناه فستبقوا فى الذل والهم طويلاً، وإذا كان معينى هو رب الشمس فإن الحظ سيهبنى قوة عظيمة، وستستردون بلادكم كلها والعرش كذلك، وتثمر تلك الشجرة الملكية ". عندئذ أثنى العظماء عليه ومدحوه قائلين: " بدونك لا كان الجواد ولا السرج ولا كانت المقمعة ".

الخطب السابع:

قتل رستم للجنى الأبيض

شد رستم خاصرته بالمنطقة من ذلك المكان، وجاء وقد امتلأت رأسه بالانتقام والحرب، واصطحب معه أولاد، وكان يقود رخش كالريح، ولم يسترح البطل الطيب فى الطريق، وكان أولاد دليله فى هذا الطريق، وعندما جاء رخش إلى تلك الجبال السبعة وفيها من مردة الشياطين جماعات جماعات، ووصل بالقرب من ذلك الغار الذى لا نهاية له، ورأى جنود الجنى يحيطون به، قال لأولاد: " كل ما سألتك عنه رأيته حقاً وصدقاً، وهناك أمر آخر شاق هنا، ويليق بك أيها الحسن الطالع أن تخبرنى به، والآن بعد أن حان وقت الذهاب دلنى على الطريق وبح لى بالأسرار ". فقال له أولاد: " عندما تشتد حرارة الشمس يستغرق الجنى فى النوم، والآن ينبغى التريث قليلاً، فلعلك تنتصر عليهم، ولن ترى من يجلس من الشياطين إلا القليل من الحراس السحرة، ولعلك تنتصر عندئذ إذا كان معينك هو الله المنتصر ".

لم يتعجل رستم فى الذهاب حتى وصلت الشمس إلى علاها، فأحكم قيود الوهق حول رأس أولاد وأقدامه، وركب عندئذ جواده، وسل حسامه المحارب من غمده، وزأر كالرعد وذكر اسم الله، وتوسط الجيش كأنه عاصفة رعد، وكان يحصد الرؤوس بالخنجر، ولما لم تكن لهم طاقة أمام قوته فإنهم ظلوا فى خوف

على أرواحهم من سيفه، ولم يقف أحد أمامه في الحرب، ولم يبحث أحد عن الشرف والعار معه، وجاء من ذلك المكان إلى الجني الأبيض كأنه الشعاع اللامع، فرأى غاراً كأنه الجحيم، ولم يكن جسد الساحر ظاهراً من الظلمة، وظل السيف في قبضته زمناً، ولم يكن المكان مكان قتال ولا طريق فرار، وعندما حك أهدابه ومسح عينيه، وبحث حيناً في ذلك الغار المظلم، رأى جبلاً في الظلمة، يختفي منه الغار كله، وجهه في لون الحجر الأسود وشعره كاللبن، وقد ملأ الدنيا بطوله وعرضه، رآه في الغار غارقاً في النوم، فلم يتعجل رستم في قتله، وصرخ صرخة كأنه النمر، فلما استيقظ من نومه هب للقتال، وجاء ناحية رستم كأنه جبل أسود، ساعده من حديد، وخوذته من حديد، واختطف حجر رحى، واقترب من رستم مسرعاً كالدخان، فاضطرب منه قلب ذلك البطل الضخم الجسم بشده، وخاف أن يكون الإدبار قد اقترب منه، وثار كأنه أسد مفترس، وضربه على خاصرته بسيفه البتار، ثم ألقى به رستم من أعلى بقوة، وقطع منه فخذاً وقدماً، واشتبك معه في قتال كالفيل المهيب والأسد الغاضب، وتقاتل مع رستم الشهير بقدم واحدة، وقلب الغار كله رأساً على عقب، وأمسك بصدر البطل الشجاع ورقبته لعله يلقى به أرضاً، فتشبث به رستم الشهير، وأمسك بصدره وعنقه بإحكام، وكان هذا يقتلع لحم ذاك وذاك يقتلع لحم هذا، وصارت الأرض كلها طيناً من الدم، فقال رستم لنفسه لو بقيت لي روحي اليوم لبقيت حياً على الدوام، وكذلك قال الشيطان الأبيض لنفسه لقد يئست من روحي اللطيفة، ولو نجوت الآن من مخالب هذا التنين مقطوع القدم وممزق الجلد فإن الكبير والصغير والمشاهير لن يروا وجهي في مازندران. كان الجني الأبيض يقول هذا، وكان يمني نفسه بتلك الأمنية، وهكذا اشتبك كل مقاتل منهما بالآخر فجرى نهر من العرق والدماء، وقاتل البطل رستم بقوة خالق الروح وبكل ما كان له من ألم وانتقام. وفي نهاية هذا القتال والنزال التفت إليه ذلك البطل

الشهير، وأنشب مخالبه، وحمله الأسد الكاسر، ورفعه على كاهله وألقى به لأسفل، وضربه بالأرض كالأسد المفترس حتى أخرج روحه من جسده، وهوى بخنجره ومزق قلبه، وأخرج كبده من جسده المظلم، وضاق الغار كله بجسد القتيل، وصار العالم كأنه بحر من الدم، ودبت الهزيمة فى الشياطين عندما رأوا ما يفعله، ولم يبق منهم أحد فى ذلك المكان، وخرج رستم المنتقم المقاتل، وحل المنطقة عن خاصرته الملكية، وخلع الخفتان والدرع عن صدره، وغسل رأسه وجسده من أجل الابتهال لله، وبحث عن مكان طاهر ليتعبد له، وبعدئذ وضع رأسه على التراب، وقال: " إلهى أيها الحكم العادل، أنت ملاذ عبيدك من كل شر، وأنت وهبتنى البطولة والقدرة والمقدرة والشجاعة والمجد والقوة وكل ما أتمناه من دوران الشمس والقمر، أنت وهبتنى ذلك، وإلا لما رأيت فى الدنيا أحداً أذل وأضعف منى، وكل ما يحل على الإنسان من خير أو شر ومن غم وهم أو تعب وحزن وألم ومن نقص وزيادة وحظ مبارك ورفعة ودنو وشجاعة، كل ذلك أراه موجوداً من عطائك، وليس لأحد آخر يد فى ذلك الأمر، ومن جودك تصبح كل ذرة شمساً، ومن مجدك يصبح الشئ القليل فلكاً ". وعندما فرغ البطل العظيم من الثناء والدعاء لبس من جديد عدة الحرب والقتال، وجاء وفك القيد عن أولاد، وربط ذلك الوهق الملكى بأهداب السرج، وسلم لأولاد تلك الكبد المنزوعة[1]، وتوجه إلى الملك كاوس، فقال له أولاد: " أيها الأسد الكاسر العظيم، لقد أخضعت العالم بالسيف، ولم يعد فى مازندران أحد يبحث عن محاربتك أيها العظيم، وأنت مظفر الحظ فى أمرك كله، وتستحق التاج والعرش،

---

[1]) يذكر الفردوسى القلب مرة ثم الكبد أخرى، والهدف الذى من أجله انتزع رستم هذا العضو أو ذاك هو استخدام دمه فى شفاء عين الملك كاوس التى أظلمت فى أسر الجنى الأبيض، والهدف هنا رمزى، وهو أن دم الانتقام سيشفى غليل للملك، ولهذا لا فرق بين القلب والكبد إذا كان المراد هو دم هذا العدو وقتله.

ويليق بك أن تنظر فى أمرى، فقد كان حديثى معك صادقاً، إن علامات قيدك على جسدى وأتحطم تحت قيود وهقك، وأمنيتى هى البشرى بالشئ الذى بشرت به قلبى، ولا يليق بك نقض العهد فأنت أسد مفترس وملكى الطباع والسمات ". فقال له رستم: " سأسلم لك مازندران من شرقها لغربها. هناك أمر عسير أمامنا ومشقة طويلة لها وهاد ونجاد، يجب خطف ملك مازندران من مكانه وإلقائه فى الجب، ويجب أن تسقط رؤوس آلاف الآلاف من الشياطين والسحرة بالخنجر فى ذل، وبعدئذ أسلم لك الأرض، ولا أنقض عهدى معك، وأعطيك بعدئذ حتى لا تكون لك حاجة وأجعلك ملكاً على مازندران ".

وعلى الجانب الآخر، كانت عيون العظماء على الطريق، ويقولون متى يعود البطل المحارب منتصراً من قتال ذلك الجنى المهيب وقد فصل رأسه عن عنقه بالخنجر، وعندئذ وصل البطل الأسد الشجاع الميمون القدم إلى الملك كاوس فتعالت صيحات السعادة من الأبطال قائلين: " لقد جاء القائد المستنير الروح ". وجروا إليه وهم يلهجون بمدحه، وكان الثناء عليه لا حدود له، فقال رستم: " أيها الملك الحكيم، فلتسعد وتسترح بموت الشرير، لقد مزقت خاصرة الجنى الأبيض، ومن الآن ليس للملك أمل فيه، وأخرجت كبده من جانبه، فبماذا يأمرنى الملك المنصور ". فأثنى عليه الملك كاوس قائلاً: " لا كان التاج والعرش بدونك، وليكن ألف ثناء على زال وعلى بلاد زابل كلها التى أخرجت بطلاً مثلك، فالزمان لم ير نظيراً لك، وعلى تلك الأم التى ولدت ابناً مثلك، ولا يليق إلا مدحها والثناء عليها، إن حظى أسعد منهما، فالفيل الذى يسقط الليث تابع لى ". وعندما فرغ الملك من ثنائه ومدحه، قال: " أيها البطل الميمون القدم، ضع الآن دمه فى عينى، وكذلك فى عيون هؤلاء القوم، لعلنا نرى طلعتك من جديد، وليكن خالق العالم عونك وسندك ". فأحضر رستم البطل قلب الجنى ووضع فى عين الملك من دمه، وعندما وضعوا الدم فى عينيه صارت تلك العين المظلمة

منيرة كالشمس، وفى نفس الوقت وضع رستم الفاضل دم الكبد فى عيونهم، فأنارت عيونهم جميعاً، وصارت الدنيا كلها روضة، ونصبوا عرشاً من العاج وعلقوا التاج من فوق هذا العاج، وجلس الملك على عرش مازندران ومعه رستم والعظماء والمشاهير، مثل طوس و فريبرز و گودرز وگيو، ورهام وگرگين وبهرام الشجاع، وقضى الملك كاوس أسبوعاً فى راحة وسرور مع الخمر والأنغام. وفى اليوم الثامن، امتطى جميع المقاتلين والعظماء والتابعين صهوة جيادهم، وحملوا جميعاً المقامع الثقيلة، وانتشروا فى مدينة مازندران، وذهبوا جميعاً بأمر الملك كالنار التى تشتعل فى القصب الجاف، وأشعلوا النار من سيوفهم البتارة، وأحرقوا المدينة كلها، وقتلوا الكثير من أولئك السحرة، حتى سرى من الدم نهر جار، وعندما اقتربت ظلمة الليل استراح الأبطال جميعاً من الحرب، وقال الملك كاوس لعسكره: " الآن جازيناهم على ذنبهم، وقد حل عليهم من الشر ما يستحقون، والآن يجب كف اليد عن قتلهم ". وقال الملك كاوس لرستم: " أيها البطل الحكيم الميمون القدم، يلزمنا رجل ذو عقل ووقار، ويعرف العجلة من التريث، فيذهب إلى قائد مازندران، ويوقظ قلبه ويعيده إلى الصواب ". فرضى ابن زال بذلك الأمر، وسعد بذلك العظماء الذين كانوا أنداداً له، وأرسل الرسالة إليه، وأنار تلك الروح المظلمة.

رسالة كاوس إلى ملك مازندران

وفى اليوم التالى، عندما بسط الفلك الدوار الديباج الأصفر فى السماء، كتب رسالة على الحرير الأبيض، فيها الكثير من الترغيب والترهيب، كتبها الكاتب الحكيم بإتقان، وأظهر فيها الحسن والقبيح، بدأها بالثناء على الله الخالق الذى تبدت منه الفضائل للدنيا، فقد وهبنا العقل وخلق الفلك الدوار، وخلق الغلظة والحدة والمحبة، ووهبنا رب الشمس الدوارة والقمر السيار القدرة على الخير

والشر، ثم قال إن هذه الرسالة المستحقة للثناء من كاوس العظيم ملك بلاد إيران إلى قائد مازندران رفيق الشياطين والسحرة، وفيها: اعلم أيها الأسير في قيد الغرور أن هذا هو رسم عالم السرور، فإذا كنت عادلاً طاهر الدين فلن تجد إلا الثناء والمديح من كل إنسان، وإذا كنت تضمر الشر وتسئ الفعل فإن التوبيخ والملام سيحل عليك من الفلك العالي، فمن ذا الذى ينفلت من طاعة الملك إذا كان عادلاً، فانظر ماذا فعل الله بك عقاباً على الذنب، لقد قضى على الشيطان والساحر، والآن لو تعلمت من الزمان، وكان معلمك هو العقل والروح، دع عرش مازندران هناك، وتعال إلى هذا البلاط كما يأتى الأتباع، ولما كنت لا طاقة لك بحرب رستم فلا مفر ولا مهرب من أن تدفع الجزية والخراج، فربما يفتح لك الطريق على هذا النحو إذا كان عرش مازندران يلزمك، وإلا يجب أن ييأس قلبك من روحك مثل أرژنگ والجنى الأبيض، أولا تعلم أن رستم عندما يقرر الحرب فإن التمساح يحترق فى البحر من سيفه، وعندما أنهى الكاتب الميمون الرسالة ختمها بخاتم من المسك والعبير، واستدعى الملك عندئذ فرهاد الميال إلى المقمعة الثقيلة، وكان مختاراً من عظماء تلك المدينة، ولا نصيب له من التقاعس والتعب، وقال له: " هذه رسالة نصح منى، فاحملها إلى ذلك الشيطان المنفلت من القيود ". فلما سمع فرهاد البطل ذلك من الملك، قبل الأرض بين يديه وحمل الرسالة إلى المدينة التى فيها أصحاب الأرجل اللينة، وكانوا فرساناً يمضغون الفولاذ، وترى الرجل فيها له رجلان من الجلد، ولهذا كان هذا لقبهم لسنوات طويلة، وكان ملك مازندران فى تلك المدينة، وفيها الأبطال والشجعان، فأرسل فرهاد أحدهم إليه، وأخبره عن أمره، وعندما سمع أن رسولاً عاقلاً ذكياً قد وصل من عند الملك كاوس اختار جيشاً جراراً لاستقباله، وكانوا من شجعان مازندران وأسودها، اختارهم كلهم من الجيش واحداً واحداً، وطلب منهم أن يظهروا مهارتهم، فقال: " يجب أن نفصل اليوم

بين الشجاعة والجنون، فكل من صارت القوة رفيقاً له فإن قلبه يصير أسيراً للحدة والغضب، عليكم بإظهار كل عادات النمور وطباعها، وحوزوا على رؤوس العقلاء بمخالبكم، وهكذا حتى يغتم هذا الرسول، ويخاف بشدة من رؤيتكم ". فاستقبلوه وقد قطبوا الجبين، ولم يكن الحديث على النحو المأمول، وعندما ذهبوا إلى فرهاد البطل كان من هؤلاء العظماء رجل ذو رفعة ومهارة، فأمسك بيد فرهاد وعصرها، وآذى عظمها وعصبها، فلم يصفر وجه فرهاد أبداً، ولم يُظهر عليه الألم لوناً أو أثراً. ثم اصطحبوا فرهاد إلى الملك، فسأله عن كاوس وعن مشقات الطريق، ثم وضع تلك الرسالة أمام الكاتب، وكان ماء الورد والمسك منثوراً على حريرها، وقرأ عليه الموبذ تلك الرسالة فغضب ذلك المقاتل العنيد مما فيها، وعندما علم بأمر رستم والجني الأبيض امتلأت عينه بالدم وقلبه بالنواح والعويل، وقال لنفسه: " إن الشمس تختفي ويحل الليل وينقضي زمن الراحة والنوم، ولن يستريح العالم من رستم، ولن يختفي اسمه وصيته، وحزن من أجل أرژنگ والجني الأبيض ومن أجل مقتل پولادغندی و بيد، وغرقت عيناه في دم قلبه عندما أتم قراءة رسالة الملك تلك.

استضاف ملك مازندران فرهاد ثلاثة أيام بين مشاهيره وأعوانه ورفاقه، وفي اليوم الرابع قال له: " اذهب إلى ذلك الملك الجديد الأبله، وأخبر الملك كاوس بالرد، فقل له: " متى كان ماء البحر كالخمر ؟! أنت لا تعلم أنني صاحب الرأس المرفوعة بين الجميع عند الحدة والغضب. هل أنا الذي تقول له دع ديارك وعرشك وتعال إلى هذا البلاط ؟! إنني أرفع منك ملكاً، وجيشي يزيد على ألوف الألوف، وأينما وجهوا وجوههم للحرب لا يبقى حجر ولا لون ولا رائحة، وسأجلب جيشاً كالأسد، وأجعل رؤوسكم تفزع من نومها الجميل. إنني لدي مائة ألف ما بين أبيض وأسود، وكلهم مثل الجني الأبيض وبيد، وعندي مائتان من الفرسان مثل الفارس سنجه، وهم يخطفون الملك بأيديهم في الحرب،

وعندما أقصد ميدان القتال لن تعرف أنت نفسك الثرى من الثريا، وليس لك بعد نصيب من الحياة، فقد ساقك الزمان من إيران إلى تلك الديار، فأعد أمرك ولا تركن للراحة أبداً، فإننى سأتجهز للقتال، وهناك ألف ومائتان من الأفيال المقاتلة التى ليس لك من مثلها فيل واحد، وسأثير التراب المظلم من أرض إيران حتى لا يعرفوا الوهاد من النجاد ". فلما سمع منه فرهاد هذا العداء وحديثه عن الترفع والحدة والشجاعة اجتهد فى تحصيل رد الرسالة، وانصرف عائداً إلى ملك إيران، وجاء وأخبر الملك بكل ما رآه وسمعه، ومزق كل أحجبة الأسرار، فقال: " إنه أرفع من السماء، ورأيه عال ليس متدنياً، لقد أعرض عن قولى، ولم يكن العالم يساوى شيئاً أمام عينيه ". فاستدعى الملك كاوس البطل رستم إليه، وساق إليه كل ما قاله فرهاد له، فغضب رستم من هذا القول، وصارت كل شعرة على جسده كالرمح، وقال رستم الضخم الجسم لكاوس: " سأضع العار على هؤلاء القوم من هذا الأمر، يجب أن أحمل إليه الرسالة، فأسِلُ السيف البتار من غمده. ينبغى أن تكون رسالة كالسيف البتار، رسالة كزمجرة السحاب الراعد، فلأذهب إليه فى هيئة رسول، وأجرى بالكلام نهراً من الدم ". فأجابه الملك كاوس قائلاً: " منك يلمع الخاتم وينير التاج، إنك رسول كالفيل الشجاع، وأسد عظيم فى كل ساحات القتال ". وأمر فذهب إليه الكاتب، وجعل من سن القلم نصل سهم، وبعد الثناء على خالق العالم، قال: " أيها المرتد عن طريق الدين، إن الإفحاش فى القول لا يستحسن من أولى الألباب فى هذه الدنيا، فلو أنك تفرغ الرأس من هذا الكبر، وتركن إلى السلامة بالطاعة، ولا تخرب بلادك، وتسلم لى التاج بلا عداء أو مقاومة، فستبقى فى مازندران سعيداً، وتنجو بروحك من رستم، وإلا سأقود الجيش لمحاربتك، وأجرد جيشاً من البحر إلى البحر، وأجرى نهراً من الدم فى مازندران، وألقى برؤوس العظماء فى التراب، ولعل روح الجنى الأبيض الشرير تبشر النسور بأشلاء مخك، ثم ما حاجتى إلى الرجال، يكفيكم رستم فى

هذا القتال، فهو عندما يقصد الميدان للقتال فإنه يقضى على رؤوس مردة الشياطين، وليس فى العالم رجل فى شجاعته، وليس فى الدنيا أحد ينافسه، وعندما يدخل البطل المنتقم إلى الميدان لا يعرف الآخرون الوهاد من النجاد، فهو بطل فى يوم القتال، يمزق قلب الأسد وجلد النمر ".

مجئ رستم إلى ملك مازندران برسالة

عندما ختم الملك الرسالة بخاتمه، قطع رستم العظيم الطريق، وألقى بالمقمعة الثقيلة على سرج جواده عندما اقترب من مازندران، ووصل الخبر إلى الملك بأن الملك كاوس قد أرسل رسولا ورسالة، وأنه رسول كالليث الغاضب، ومعه وهق من ستين طية معلق بأهداب السرج، وتحته جواد سريع، كأن جسده جسد فيل مهيب، وكأن ذلك العظيم جبل يتحرك، وكأنه الأسد عند الصيد والقنص. فلما سمع قائد مازندران ذلك، اختار عدة رجال من الأبطال، وأمرهم فاستعدوا، وذهبوا لاستقبال ذلك الأسد المفترس، وذهب جيش مُزدان كالربيع إلى ذلك الرجل العظيم. وعندما وقعت عين البطل رستم عليهم، نظر فرأى فى الطريق شجرة كثيفة الأغصان فأمسك عندئذ غصنين من الشجرة وأسرع بلويها بشدة، وسارع باقتلاع الشجرة من جذورها، ولم يصب جسده بأى ضرر، واقتلعها وأمسك بها فى يده كالرمح، فظل الجيش فى عجب ودهشة، وعندما اقترب منهم ألقى بها، فجعل الكثير من الفرسان تحت أغصانها، وكان المقدم على أولئك الفرسان هو أحد عظماء مازندران، فأمسك بيد رستم وعصرها وآذاه من أجل الاختبار، فتبسم منه رستم الضخم الجسم، وحارت منه عيون أولئك القوم، وبينما هو يبتسم عصر قبضته، فانتزع العروق من يده واللون من وجهه، وذهب العقل من ذلك الرجل القوى، وسقط من فوق جواده، فذهب أحدهم إلى ملك مازندران، وأخبره بما رآه من أوله لآخره، وكان هناك فارس يسمى

(كلاهور)، وكانت مازندران تمتلئ منه حماساً، وكان طبعه كالنمر المفترس، لا يتمنى إلا الحرب والقتال، فاستدعاه من أجل استقبال رستم، وأجلسه بشجاعته على الفلك الدوار، وقال له: " اذهب إلى ذلك الرسول، واظهر له الفضل والمهارة، وافعل ما يجعل وجهه يمتلئ بالخجل، حتى تجرى الدموع الحارة من عينه على وجهه، فجاء كلاهور كالأسد الكاسر إلى ذلك الرجل الشجاع العظيم، وسأله كالنمر عما يجب السؤال عنه، ووجهه غاضب، وعندئذ مد إليه يده، وعصر ذلك الفيل العظيم قبضته، فصارت كالنيلة الزرقاء من الوجع، فلم يتألم، وبعد عنه الخوف والفكر، فقد كان لديه منشور بالرجولة من الشمس، ثم عصر رستم يد كلاهور بشدة حتى تساقطت أظافره كأوراق الشجر، وذهب كلاهور بيده معلقة وقد تساقط عصبها وجلدها وأظافرها، وأظهرها للملك، وقال له: " لا يمكن إخفاء الألم فى نفسى، والصلح خير لك من الحرب، فلا تضيق على قلبك السعة والرحابة، فإنك ليس لك طاقة بمثل هذا البطل، وليس هناك أفضل من الجزية إذا وافق، فلنقبل ونوزعها على الأصاغر والأكابر فى مدينة مازندران، ونيسر مثل هذه المشقة القاسية أفضل من أن نخيف أرواحنا ". فحزن الملك السئ الجبلة الشرير من قول كلاهور المنتكس الحال، وجاء البطل رستم فى تلك اللحظة إلى الملك كالفيل الهائج، فنظر إليه، وأجلسه فى موضع يليق به، وسأله عن كاوس وعن جيشه، ودار الحديث عن مشقة الطريق الطويل، وكيف قطع الوهاد والنجاد، ثم قال له: " أأنت رستم؟ إن لك صدر البطل وساعد الشجاع، هل هلك الجنى الأبيض على يدك وصارت رأسى فى التراب منك؟ ". فأجابه قائلاً: " إننى تابع له لو كنت أليق بتبعيته، وأينما يكون هو فإننى لا أفيد ولا أنفع، فهو البطل والشجاع والفارس، ولم يظهر عظيم مثل رستم منذ أن خلق الخالق الدنيا، هو جبل فى الحرب والنزال، ماذا أقول وكيف أصف جواده رخش ومقمعته، أى جماعة تلك التى تثبت له عندما يقاتل؟ إنه يجعل الجبل بحراً

والبحر جبلاً، ويستوى فى قتاله الفيل والأسد والشيطان، ويطلق صرخاته عندما يشتبك فى القتال، هو بمفرده جيش عظيم، ولا يليق به حمل الرسائل، ولكنه أرسلنى أنا لأبلغ الرسالة التى حملنى إياها. إن رستم الشهير يقول لك لو كنت عاقلا فلا تبذر بذور الشر، لقد بذرت الكثير من بذور الشر وتركت طريق الرجولة والشجاعة ذليلاً حقيراً، لماذا عاديت ملك بلاد إيران والجنود والأبطال وقاتلتهم؟ ألم تسمع باسم رستم الذى يعد الفلك أقل تابع له؟ ولو أذن لى الملك بالخروج لأقبلت إلى هؤلاء القوم، فلا أبقى من جنودك أحداً حياً، وتكون رأسك على رأس الرمح ". ثم سلمه ذلك الشهير بعد ذلك الرسالة، رسالة الفارس المقاتل العنيد، وقال إن السيف يثمر، ويلقى برؤوس العظماء جانباً، فلما سمع الرسالة وقرأ كتابها غضب وغلبته الدهشة والحيرة، وقال لرستم: " لماذا يجب البحث عن هذا الأمر عبثاً، والحديث فى هذا بلا طائل، قل له لو كنت قائد إيران ولو كان لك قلب الأسود ومخالبها فإننى ملك مازندران ومعى الجيش، وأجلس على العرش الذهبى وعلى رأسى التاج، وإن دعوتك لى للمثول بين يديك عبث، وليس هذا من رسوم الملوك وعاداتهم، فكر، ولا تبحث عن عرش العظماء، فمن هذا الباب سيأتيك الذل والهوان، وعد إلى بلاد إيران، وإلا فالزمان سيأتى برأسك على رمح، فعندما أتحرك من مكانى بالجيش فإنك لن ترى رأسك من قدمك، لقد وقعت فى الوهم بلا شك، فعليك بإعمال الرأى والمصلحة وألق بالقوس، وسينتهى قولك الحاد القاسى هذا عندما أواجهك عن قرب، واحمل منى رسالة لرستم أيضاً، فقل له: أيها البطل الحسن السمعة، ماذا تنال من الملك كاوس، فلو كان لك منه نصيب فسيكون لك منى مائة نصيب، وسأرفع رأسك وسط الأبطال، وأغنيك بالفضة والدراهم، وأجعل رأسك تطاول الشمس والقمر، وأجعل لك قيادة الجيش ". فنظر رستم بروح مستنيرة إلى عرش البطل وجيشه وبلاطه، ولم يرق قوله هذا لعقله، وصار أكثر غضباً من إيذائه، وقال: " أيها

الملك الأحمق، ها قد أظلم عليك الزمان، أيحتاج البطل رستم العظيم إلى كنزك وجيشك وهو ابن زال ملك سيستان الذى ليس له فى الدنيا قرين، لا تحرك لسانك بالحديث فى هذا الأمر ثانية وإلا فإنه سيخرج لسانك من فمك ". فاشتعل الملك غضباً من هذا القول، وتوجه إلى الجلاد السئ الجوهر، قائلاً: " خذ هذا الرسول، وأنزله عن عرشه واضرب عنقه أمامى ". فذهب الجلاد القبيح مسرعاً إلى العرش حتى يمسك بمعصم ذلك الميمون الطالع وينزله من ذلك المكان، فزأر رستم كالأسد الكاسر، وأمسك بمعصمه وجذبه إليه، وجره من ذلك المكان إليه، وألقى به وأمسك بقدمه، ووضع قدمه هو على قدم الجلاد الأخرى، ومزع الواحدة عن الأخرى، حتى أن أحداً فى العالم لم ير مثل هذا العجب من قبل، ثم صاح ذلك العظيم قائلاً: " لو كان الملك قد أذن لى لقمت بقتال جيشك الآن، ولجعلتك فى هذه اللحظة ذليلاً عاجزاً ". قال هذا ثم خرج من البلاط وعيناه تشبهان كأسين من الدم، فارتعد الملك واهتز من يد ذلك البطل ولسانه، وأعد خلعة ملكية وقدمها إلى الفارس رستم، فلم يقبل منه الثياب والجواد والذهب وشعر بالعار من ذلك التاج وتلك المنطقة، وجاء مسرعاً من بلاطه، وقد رأى وجه النجوم والقمر مظلماً، وخرج من مدينة مازندران غاضباً من هذا الحديث، وعندما اقترب من الملك كان قلبه مغتاظاً ودمه يغلى، وعرض على ملك إيران كل ما رآه أو سمعه فى مازندران، وبعدئذ قال له: " لا يأخذنك التفكير، وعليك بإظهار الشجاعة والاستعداد لقتال الشياطين، واعلم أن شجعان أولئك القوم وأبطالهم أذلاء فى نظرى، ولا يساوون عندى ذرة تراب، وسألحق بهم الهلاك بهذه المقمعة، وسترى رغبتك تتحقق، فأنا أعلم أن هذا هو الدواء لآلام القلب ".

حرب كاوس مع ملك مازندران

عندما عاد رستم من مازندران كان ملك السحرة قد استعد للحرب، وأخرج سرادقه من المدينة، وقاد الجيش كله إلى الصحراء، واختفى وجه الشمس عندما ثار الغبار من الجيش، ولم يظهر الوادى ولا الجبل ولا الصحراء، وتعبت الأرض من أقدام الفيلة. كان يقود الجيش كالريح المسرعة، ولم يتأخر لحظة واحدة فى المسير. وأظلم العالم كله من أوله لآخره، وصارت السماء فى لون القار من غبار الجيش، وعندما وصل الخبر للملك كاوس بأن جيش الشياطين قد اقترب أمر أن يشد رستم بن زال المنطقة على خاصرته أولاً لهذا القتال، وأمر طوس و گودرز و كشواد وگيو وگرگين وباقى الأحرار أن يعدوا الجيش ويجهزوه، وأن يصقلوا الرماح والدروع، ونصبوا سرادقات الملك والقادة فى صحراء مازندران، وقام على الميمنة طوس بن نوذر، وكان قلب الجبل مليئاً بأنات النفير، وعلى الميسرة گودرز وكشواد، وصاروا جميعاً جبلاً من حديد، والملك كاوس فى قلب الجيش، وانتظمت صفوف الجيش من الجانبين، وفى مقدمة الجيش رستم الضخم الجسم الذى لم ير الهزيمة فى الحرب أبداً، وأقبل الأبطال على قتال بعضهم البعض عندما استعد الجند من الجانبين، وكان هناك رجل عظيم من مازندران يحمل على عاتقه المقمعة الثقيلة، وكان اسمه (جويا)، وكان وثاباً يميل إلى المقمعة القامعة للرؤوس. ذهب جويا بإذن الملك وأسرع فى اتجاه القائد كاوس، وكان الدرع يلمع على صدره، وكانت حرارة سيفه تحرق الأرض. جاء ومر على جيش إيران، وكان الجبل والصحراء يصرخان من صوته، وكان يقول: " من يقاتلنى؟ من ذا الذى يثير الغبار من الماء؟ ". كان يزأر وسط الصفين، ويصرخ وقد أرغى وأزبد، ولم يتقدم إليه أحد من الشجعان، وظل ذلك المقاتل فى مكانه، فقال الملك كاوس للإيرانيين: " إن رؤوسكم لا تجد الطريق للحرب ". فلم يخرج أحد لمواجهة جويا، ولا تحركت

عروقهم وكأنها خالية من الدم، وعندئذ صرخ الملك قائلاً: " ماذا حدث أيها الشجعان والرجال المحنكون حتى حارت قلوبكم هكذا من هذا الشيطان وأظلمت وجوهكم من صوته؟ من يلقى به من على صهوة جواده؟ ومَن مِن إيران يقول: أنا الشجاع ". لم يرد الشجعان على الملك، وكأن الجيش قد ذبل واغتم من جويا، فثنى رستم عنان جواده على الفور وقد حمل على عاتقه الرمح اللامع قائلاً: " فليكن أمر الملك لى بالذهاب إلى هذا الشيطان المارق ". فقال كاوس: " إن هذا هو عملك، فلا أحد من إيران يريد الذهاب للنزال، اذهب، وليكن الخالق معينك، وليكن كل الشياطين والسحرة صيدك وفرائسك ". فأسرع رستم كالأسد المفترس عندما سمع ذلك من ملك الزمان، وحث رخش الشجاع على الحركة من مكانه وفى قبضته الرمح الميال للرؤوس، وذهب إلى ميدان المعركة كالفيل الغاضب وتحته نمر وفى يده تنين، وثنى عنانه وأثار الغبار، وارتعدت من صرخاته أرض المعركة، وقال لجويا: " أيها الوضيع الحقير، يا من سقط اسمك من بين أسماء العظماء، الآن هو وقت الشفقة عليك، فهو ليس وقت الهدوء والراحة، وستبكى عليك أمك التى ولدتك وسيزيد عليك من كان يميل إليك ". فقال له جويا: " لا تطمئن لجويا ولخنجره الحاصد للرؤوس، فالآن تبكى أمك عليك بحرقة الكبد على درعك هذا ومغفرك ذاك ". فلما سمع رستم كل هذا الكلام صرخ صرخة وذكر اسم الله، وجاء من مكانه كالجبل المتحرك فاسودت روح منافسه وأظلمت، وثنى عنانه وولى مدبراً، ولم تكن مقاتلة رستم أمنيته ورغبته، وفر من البطل العظيم، فزأر البطل رستم كالأسد وجاء خلفه كعاصفة الغبار، ووجه رمحه إلى منطقته، لقد ألقى بالرمح على معاقد درعه فلم يبق للدرع أى معاقد أو أربطة، وهكذا ضرب خاصرته بالرمح فلم ير بعدها الدنيا بعينيه، وانتزعه عن صهوة جواده وحمله كالطائر على السفود، ثم ألقاه من على ظهر جواده فى التراب بفم ملئ بالتراب ودرع ممزق، وظل شجعان مازندران

وأبطالها فى حيرة ودهشة، وانكسر قلب الجيش واصفرت الوجوه، وتصاعد الجدل والصخب من ميدان القتال، وقال قائد مازندران للجيش كله من أوله لآخره: " فلترفعوا رؤوسكم، وقاتلوا وأظهروا جميعاً عادات النمور وطباعها ".
وسمع الأبطال كلهم ذلك القول من الملك المقاتل، وجاء الكثيرون من ذلك الجيش الجرار إلى القتال بغيظ وحقد، فلما رأى قائد إيران ذلك، هب من مكانه على النحو الذى يليق به، وارتفعت أصوات البوق والطبل من كلا الجيشين، وصار الهواء أزرق اللون والأرض فى لون الأبنوس، وسل الجميع سيوف الانتقام، واشتبكوا مع بعضهم البعض، وكانت النيران تشتعل من المقامع والسيوف كلمعان البرق فى السحب المعتمة، وصار الجو أحمر وأسود وبنفسجياً من كثرة الرماح وتنوع الرايات، وصارت الأرض كبحر من القار أمواجه كلها من الخناجر والمقامع والسهام، والجياد السريعة كالسفن فى الماء وكأنها تسرع نحو الغرق، وتشقق الجبل وتمزقت الأرض من أصوات الشياطين وظلمة الغبار ومن قرع الطبول وجياد القتال، حتى إن أحداً لم ير كهذا القتال من قبل، وكأن العالم قد امتلأ بدوى الرعد، واختفى النهار فى ظلمة الليل، وتعالت قعقعة المقامع والسيوف والسهام وصارت الصحراء بركة من دم الأبطال، وبدا العالم كله كالبحر، والتمساح فيه هو السيف والمقمعة، والفرسان كالسفن الجارية فيه، وقد تواجهوا للثأر والانتقام، وضربات المقامع تتساقط على الخوذات والمغافر وكأنها رياح الخريف حين تسقط أوراق شجر الصفصاف، وسقطت كثير من الرؤوس كالكرات، وتشققت القلوب والصدور، وكان الدم نهراً والقائد رستم البطل المحطم للصفوف بسيفه قابض الأرواح المجندل للأعداء وقد امتطى جواده رخش كالجبل، وألقى بنفسه وسط جموع الشياطين، وكان يقيم القيامة بين الشياطين عندما يضرب بسيفه البتار، وكان يلقى بعشرة رؤوس عن أكتافها بضربة واحدة، ويقتلع قلب الأسد بصرخة، وتشقق قلب السماء من

مقمعته، وامتلأ وجه الفلك بالتراب من غباره، وكان قلب الأسد يصير غربالاً عندما كان السهم ينطلق من بين أصابعه، والوهق كالثعبان الذى يجذب الأبطال للفخ عندما كان ينحنى الجسد المستقيم، وحار العالم من قدمه ومن ركابه، وبكت عين الأرض دماً من سيفه، وهكذا أسقط رستم فى القتال الكثيرين من ذلك الجيش الشهير، وتواجه الجيشان العظيمان على هذا النحو لمدة أسبوع كامل، وفى اليوم الثامن خلع ملك العالم كاوس ذلك التاج الملكى عن رأسه، وأقبل على الله قاضى العالم الهادى، وقام يبكى بين يديه، وبعدها مسح بوجهه التراب وقال: " إلهى أيها الحكم الصادق، يا من خلقت الماء والتراب، هب لى على مردة الشياطين الذين لا يخافون نصراً وغلبة وعظمة، ورُد لى عرش المملكة من جديد ". وبعدها لبس مغفره على رأسه وجاء إلى جيشه العظيم، وتصاعد الضجيج وأصوات النفير، وتحرك الجيش من مكانه كالجبل، وأمر الملك أن يقرع گيو وطوس الطبول من وراء الجيش وجاء گودرز مع (زنگه بن شاور) و رهام وگرگين وباقى المحاربين وفرهاد وخراد وبرزين وگيو وبهرام العظيم وگستهم الشجاع. جاءوا إلى ميدان القتال مسرعين، وأقبلوا جميعاً يطلبون القتال من جديد، وجاء (گرازه) كالخنزير البرى وقد رفع راية من ثمانية أذرع، وجاء البطل رستم أولاً إلى القلب، وغسل الأرض بدم الشجعان، وكان گودرز بن كشواد على الميمنة بالسلاح والجند والطبل والمؤن، وذهب گيو من هذه الميمنة إلى تلك الميسرة كالذئب أمام الحمل، وجرت الدماء من السحر حتى أظلمت الشمس كأنها نهر من الماء، وذهب الحياء والبهاء والمحبة من الوجوه، وكانت المقمعة تتهاوى كأنها الفلك، وتكوم القتلى فى كل مكان، وتلطخ العشب بأمخاخهم، ودوت أصوات البوق والطبل كالرعد، واختفت الشمس وراء الحجاب الأبنوسى، وذهب رستم الضخم الجسم مع جيش جرار إلى الناحية التى كان فيها ملك مازندران، ولم يترك مكانه لحظة، وصمد فى ساحة القتال، وصار

هو والشيطان والأفيال المقاتلة فى مواجهة بعضهم البعض.

قال القائد للقادة الفرسان: " أيها المقاتلون المشاهير، عليكم بإظهار مهارتكم اليوم فى القتال، وعليكم بالصدق الكثير بالرجولة والشجاعة ". فسحب أولئك القادة سيوفهم ومقامعهم، واختلط الجند ببعضهم البعض، وثار الغبار فى صحراء المعركة حتى تلون به وجه الشمس، وذكر الملك الفاتح الله مالك العالم، وأعطى الرمح ذا السنان لصاحبه، وسحب المقمعة وأظهر حدة وغلياناً، فامتلأ الفضاء بالضجيج من صوته، وقضى بسيفه على الكثيرين من ذلك الجيش الشهير فى القتال، ولم يعد للشيطان روح ولا للفيل عقل من صوت ذلك البطل القاتل للقادة، ورأوا خراطيم الأفيال ملقاة فى الصحراء كلها، والقتلى تمتد جثثهم لعدة أميال، وبعدئذ طلب البطل رستم رمحاً، وتوجه مباشرة ناحية ملك مازندران، واشتبك معه فدبت الحيرة فى كلا الجيشين. لقد جاء راكضاً إلى ذلك العدو الحقود، وصرخ كالفيل الهائج، وقال له: " أيها الشرير الدنئ، فلتثبت الآن فى ساحة القتال ". فجاء صارخاً كالذئب المفترس عندما رأى ذلك القائد البطل المهيب، وعندما وصل رستم راكضاً سحب المقمعة الثقيلة من سرج جواده، وصرخ كل من الملك الساحر والبطل رستم كالرعد، وعندما وقعت عينه على رمح رستم لم يبق له أى شجاعة أو حمية، وثار قلب رستم من الغيظ وأخذ يزأر كالأسد الهصور، وألقى بالرمح على منطقته فاخترق الخفتان إلى أوصاله، وصار جسده من السحر قطعة من الجبل، والجميع من الإيرانيين ينظرون إليه، فبقى البطل رستم متعجباً منه وقد حمل الرمح ذا السنان على عاتقه، ووصل الملك كاوس إلى ذلك المكان بالأفيال والطبل والدرفش والجيش، وقال لرستم: " أيها العظيم، ماذا حدث لك فأطلت البقاء هنا؟ ". فقال رستم: " عندما كان القتال شديداً، وأضاء الطالع الميمون وأنار، رآنى ملك مازندران وقد حملت المقمعة الثقيلة على كاهلى فثنى عنانه وجاء إلى القتال وكأنه العنقاء فى طيرانها،

فأطلقت العنان لرخش الشجاع وألقيت بالرمح على معاقد خفتانه، فظننت أنه سينقلب فى الحال، ويسقط عن صهوة جواده، ولكنه صار قطعة من الحجر أمامي ولم يعد يشعر بى بقليل أو كثير، وهكذا صار قطعة من جبال الحجر الصوان، وصار لا يكترث بالقتال والشجاعة، وسأحمله الآن إلى المعسكر لعله يخرج من هذا الحجر، فأمر الملك أن يحملوه من ذلك المكان إلى مقرهم، وأخذ كل من كانت له قوة من جنود الجيش فى لمس الحجر والبحث عن مغاليقه فلم يتحرك الحجر الثقيل من مكانه وبداخله ملك مازندران، فأنشب البطل رستم مخالبه ولم تكن له حاجة إلى التجريب، وحمل تلك الصخرة على هذا النحو حتى تعجب منه الجند جميعاً، وكان يمشى والصخرة على كتفه ومن خلفه الجميع وهم يصرخون ويصيحون، وكانوا يثنون على الله الخالق، ونثروا عليه الذهب والجواهر، وحمل الصخرة إلى سرادق الملك وألقى بها، وسلمها للإيرانيين، وقال له: " إما أن تخرج الآن وتترك هذا المكر والسحر أو أحطم هذا الحجر من أوله لآخره بالمقمعه والسيف والمعول ". فلما سمع ذلك صار كقطعة سحاب وعلى رأسه الفولاذ وعلى جسده الخفتان. عندئذ ضحك رستم وأخذه من يده وقاده إلى الملك كاوس، وقال أحضرت هذا الحجر بعد أن صار عاجزاً فى قبضتى خوفاً من المعاول ". فنظر إليه الملك كاوس ولم يره جديراً بالعرش والتاج، فقد كان قبيح الوجه طويل القامة، ورأسه وعنقه وأنيابه كالخنزير، وتذكر تلك الصعاب القديمة، فحزن قلبه وفاضت شفتاه بالآهات، وأمر الجلاد أن ينوش جسده بالسيف البتار، وأن يمزقه إرباً إرباً، فأمسك البطل رستم عندئذ بلحيته وجره وأخرجه من أمامه، وبعدئذ مزقوه إرباً إرباً بأمر ذلك الملك الشهير، وعندما قتل ذلك الملك الظالم الذى لم يكن يستحق التاج والمنطقة أرسل على الفور رجلاً إلى معسكره، وأمر بإحضار كل ما هناك من ثروة ومن كنز وعرش وتاج ومنطقة وجياد وسلاح وسيوف وجواهر، فوضعوها فى كل مكان

أكواماً أكواماً، وذهب الجند فى جماعة مع بعضهم البعض، ووهب الملك لكل واحد ما يستحقه من الكنز، واختص من بذلوا جهداً أكبر بالعطاء، وأمر بكل من كان غادراً من الشياطين ممن كانت قلوب الجميع تخشاهم، أمر أن يقطعوا رؤوسهم، وأن يلقوا بهم فى المعابر والطرق، وبعدئذ جاء إلى مكان الصلاة، وأخذ يناجى الله الحكم الطاهر سراً، قائلاً: " أيها الحكم العادل المدبر للأمور، لقد أغنيتنى فى هذه الدنيا عن الحاجة، ومكنتنى من السحرة، وجعلت حظى الأشيب شاباً ". وظل قائماً بين يدى الله أسبوعاً، فكان يمسح الأرض بوجهه تضرعاً له. وفى اليوم الثامن، فتح أبواب الكنوز وأعطى لكل من كانت له حاجة، وظل أسبوعاً على هذا الحال، فأعطى لكل من وجب له العطاء. وفى الأسبوع الثالث، طلب الخمر وكؤوس الياقوت والكهرمان بعد أن استقامت الأمور، وظلت الكؤوس المترعة بالخمر فى اليد أسبوعاً، وبقى بعدها زمناً فى مازندران.

كاوس يُجلس أولاد على عرش مازندران

عندما جلس كاوس على العرش مرة أخرى، قال لرستم العظيم: " يا بطل العالم من شرقه لغربه، لقد أظهرت فضلك فى كل مكان بالشجاعة، ولقد استعدت الآن عرشى بفضلك، فليكن قلبك منيراً، ودينك ومذهبك كذلك ". فقال البطل رستم للملك: " إن كل رجل يفيد بشكل من الأشكال، ولقد ظهرت فضائلى هذه بفضل «أولاد» الذى أرشدنى إلى الطريق فى كل ناحية، وإن له اليوم أملاً فى مازندران بعد أن بشرته بشارة صادقة بذلك، وجدير بالملك الذى يكرم تابعيه أن يجعله العظيم على هؤلاء القوم، والآن ينبغى أن تكون له خلعة الملك أولاً، وأن تكتب له العهود والمواثيق بأن يكون هو الملك فى مازندران، وأن يخدمه كل العظماء ويطيعونه، ويكون تابعاً مخلصاً لك، فعليك بإرساله بما يليق بك ".

فقبل الملك اليقظ ذلك ورضى به لما سمع قول رستم المطيع للملك، واستدعى العظماء من مازندران وحدثهم كثيراً عن أولاد، وقال: " إنه الملك عليكم، وله هذا العرش والمقام والتاج، فبجلوه وأطيعوا أمره، ولا تحيدوا عن طاعته ورأيه ". وخلع عليه خلعة خاصة وقال له أن يصنع الخير فى الخفاء على الدوام، وسلم إليه عندئذ العرش الملكى، وتوجه من هناك إلى بلاد فارس.

عودة كاوس إلى إيران

والسماح لرستم بالعودة إلى سيستان

أظلم الفضاء من غبار الجيش عندما وصل كاوس إلى بلاد إيران، وتصاعد الحماس والغليان إلى الشمس، وتعالت صرخات النساء والرجال وصيحاتهم أمامه، وزينوا بلاد إيران كلها، وطلبوا الخمور والألحان والمغنين، وتجددت الدنيا كلها بالملك الشاب، وأهل من إيران قمر جديد، وفتح كاوس كنوزه القديمة عندما جلس على العرش منتصراً سعيداً، واستدعى موزعى العطايا من كل مكان، ووضع ديوان الأرزاق والهبات، وتصاعد الصخب والضجيج من بلاط رستم الضخم الجسم، وتجمع كبار الجيش وقادته، وجاءوا جميعاً سعداء إلى الملك، جاءوا إلى ذلك البلاط العظيم، وجاء البطل رستم وعلى رأسه التاج، وجلس على العرش قريباً من الملك، وكان يريد الإذن من الملك حتى يعود إلى أبيه زال، فأعد له ملك الأرض خلعة تليق به وتستحق الثناء والمديح، فيها عرش فيروزى كالحمل، وتاج ملكى مرصع بالجواهر، وثياب ملكية منسوجة من الذهب مع سوار وطوق عظيمين، ومائة من قمريات الوجوه المتمنطقات بالذهب، ومائة من الجميلات صاحبات الشعر المسكى، ومائة فرس باللجم الذهبية ومائة جمل من الجمال السود بأزمة ذهبية، وكلها محملة بالديباج الملكى، من الرومى والصينى والبهلوى، وحملت أيضاً مائة كيس من الدنانير، ومن الألوان والعطور ومن كل شئ، وكأس من الياقوت ملئ بالمسك الخالص، وآخر

من الفيروز ملئ بماء الورد، وكتب له كتاباً على الحرير معطراً بالمسك وماء الورد والعود والعنبر. وسلم الملك بلاد سيستان كلها للقائد المنير للدنيا من جديد، حتى لا يكون أحد آخر متوجاً على ذلك العرش من بعد عهد الملك كاوس، وبعدئذ أثنى عليه الملك قائلاً: " لا رأى أحد الشمس والقمر بدونك، وليسعد قلب العظماء بك، ولتكن روحك عامرة بالحياء والشرف ". فخر رستم على الأرض، وقبل العرش، واستعد للطريق وتجهز للرحيل، وتصاعد قرع الطبول من المدينة، ووصل لكل إنسان نصيبه من السعادة، وارتفع الضجيج ودوت أصوات النواقيس والنفير وقرع الطبول، وخرج الكبراء معه مسافة فرسخين وودعوه ثم عادوا. ورحل رستم بن زال، وجلس الملك، وأضاء العالم بالدين والأعراف والتقاليد، وقسم الأرض على العظماء عندما عاد من بلاد مازندران، وعندئذ أعطى قيادة الجيش لطوس، وقال له: " عليك بإبعاد الشر عن إيران ". ثم سلم الجند إلى گودرز، ومنحه عرش تلك الديار وحكمها، وبعد ذلك مد يده إلى السعادة والخمر، وأظهر الكثير من الرفعة والفضل للعالم، وضرب عنق الحزن بسيف العطاء، ولم يعد القلب يتذكر الموت، وجلس بسعادة على العرش الذهبى، وأغلق باب كل جور وظلم، وامتلأت الأرض بالخضرة والماء والنضارة، وتزينت كأنها حدائق إرم ذات العماد، فقد قويت بالعدل والاطمئنان، وقيدت اليد الشيطانية عن فعل الشر، وكانت ثمار الأشجار وأوراقها تثنى ليل نهار على التاج والعرش. فليكن فى كل ساعة مائة ألف ثناء من خالق العالم على ذلك الملك الذى يعمر العالم بالعدل، ويذكره بالجود والعطاء.

علمت الدنيا بأن الملك كاوس قد حرم مازندران التاج والعرش، وبقوا جميعاً فى هذا العجب، لأن الملك كاوس قد نال تلك العظمة، واصطف الأطهار كلهم على باب الملك بالهدايا والنثارات، وتزين العالم كأنه جنة عامرة بالعدل ومترعة بالثروات.

الإسكندر



الإسكندر، أو الإسكندر الثالث ابن فيليب الثاني المقدوني. يعرف في المصادر العربية بالإسكندر المقدوني أو الرومي، كما يعرف في بعض المصادر بالإسكندر ذي القرنين، وهو من أعظم القادة العسكريين في التاريخ القديم، فقد انتصر في مواقع كثيرة وفتح الكثير من البلدان وحكم إمبراطورية شاسعة في سنوات قليلة.

ولد الإسكندر في مقدونيا سنة ٣٥٥ ق.م، واختار له والده الفيلسوف أرسطو

ليشرف على تربيته، ونشأ نشأة عسكرية حيث الشجاعة والفروسية. وفى عام ٣٣٦ ق.م اغتيل والده فيليب فجلس على العرش قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وثارت بعض المناطق على حكمه فأخمد الثورات والفتن ووحد البلاد تحت حكمه، ثم بدأ فى الإعداد لحملته على بلاد إيران، فتوجه إليها بعد عامين قاصداً الانتقام من الإيرانيين بسبب الحملات التى شنها خشيارشا على بلاد اليونان، وكف إيران عن التدخل فى أمور اليونان.

سار الإسكندر على رأس جيش مكون من ٣٥ ألف جندى لغزو إيران، والتقى مع دارا الثالث آخر ملزك الأخمينيين، وهزمه فى موقعة إيسوس، وهرب دارا من وجه الإسكندر الذى تقدم إلى مصر واستولى عليها ثم عاد إلى سوريا ودخل ما بين النهرين وعبر دجلة والفرات وهزم الجيش الفارسى الكبير فى موقعة إربل، وفر دارا ثانية. توجه الإسكندر بعد ذلك إلى بابل ثم إلى سوس ومنها إلى برسَبوليس فأحرقها انتقاماً لإحراق مدينة أثينا، واستمر الإسكندر فى مطاردة دارا حتى وجدوه مقتولاً على يد أتباعه. وبذلك سقطت الدولة الأخمينية، وخضعت إيران كلها للإسكندر الذى ظل فى حروب وفتوحات إلى أن مات فى عام ٣٢٣ ق.م.

ترك الإسكندر إمبراطورية شاسعة ضمت بلاد الشام ومصر والعراق وتركيا وفارس وامتدت إلى مسافات شاسعة من بلاد الهند، ورافقه فى رحلته الطويلة لفتح هذه البلاد طائفة من العلماء والمؤرخين الذين كتبوا الكثير مما لا يخلو من المبالغة والتوهم، فقد رأوا شعوباً مختلفة وجرت بينهم وبين هذه الشعوب أحداث كثيرة، ثم عادوا إلى بلادهم ليبالغوا فى وصف ما رأوه ورواية الأساطير عن الأهوال والعجائب التى شاهدوها. ثم أضافت كل أمة وصل الإسكندر إلى حدودها شيئاً من خيالها إلى سيرته الأسطورية، فهو ابن الإله فى مصر، وابن

الملك داراب فى إيران.

يذكر الإسكندر فى المصادر الإيرانية قبل الإسلام موصوفاً بالملعون والمخرب، وسبب ذلك نجده فى هذه الفقرة من كتاب «بندهشن» الذى جاء فيه: " ثم هاجم القيصر الإسكندر بلاد إيران من بلاد الروم فى عهد دارا بن داراب، وقتل الملك دارا، وشتت شمل الأسرة المالكة وفرق مغان إيران ومشاهيرها، وأطفأ الكثير من النيران، وأهان دين المزديسنيين واحتقره، وأرسل كتاب الزند إلى بلاد الروم وأحرق الأفستا، وقسم بلاد إيران إلى تسعين ولاية... ". وذكر كتاب «أردا ويراف نامه» أن الإسكندر الرومى الملعون تسبب فى مذبحة إيران وسعى فى تخريبها مدفوعاً برغبة من الأرواح النجسة، وأنه أحرق تخت جمشيد والكتب الزردشتية المقدسة.

وبمرور القرون والأزمان تغير رأى الإيرانيين فى هذا الملك، فهو فى العصر الإسلامى ذو القرنين المؤمن الموحد، ثم تحدث المصالحة الكبرى بين الإيرانيين والإسكندر حينما تزعم الأساطير الفارسية أن الأخير هو ابن الملك داراب من ابنة الملك فيليب. وهكذا حافظ الإيرانيون على كرامة قوميتهم التى أهانها الإسكندر بإسقاط دولة كبيرة من دولهم وهى الدولة الأخمينية التى كانت أكبر دولة فى العالم فى وقت من الأوقات. وصار انتزاع الإسكندر لملك إيران من يد دارا بمثابة استرداد لحقه باعتباره الابن الأكبر للملك داراب.

امتزجت سيرة الإسكندر – رغم كونه شخصية تاريخية حقيقية – بالأساطير والخرافات، حتى إنها صارت فى مجملها أقرب إلى حكايات خرافية تروى عن شخصية ليس لها أصل تاريخى، ومن ذلك ما أورده الفردوسى فى شاهنامته وننقله فى هذا الكتاب من ترجمة البندارى عن سيرة الإسكندر منذ أن ولدته أمه إلى أن مات. وخلاصة هذه الأسطورة أن دارا الأول (داراب) تزوج من ابنة

فيليب المقدونى (فيلقوس)، ثم ردها إلى أبيها بسبب رائحة فمها التى تخلصت منها بفضل نبات يسمى (الإسكندر)، فلما عادت إلى بلاد اليونان وضعت طفلاً أسمته الإسكندر، ونسبه الجد إلى نفسه حتى يخفى إهانة ملك إيران لابنته، وكبر الإسكندر وتوجه إلى إيران غازياً، وانتصر على دارا الذى قتل على يد أعوانه، وحزن الإسكندر عليه، وتزوج من ابنته، وبدأ فى رحلة طويلة من المعارك والمغامرات، فيها من العجائب والغرائب ما يصل إلى حد الزعم بأن الإسكندر زار بيت الله الحرام، ووصل إلى مدينة النساء التى تسكنها بنات أبكار خلقت الواحدة منهن بثدى واحد وتقاتل قتال الرجال، وسار فى الظلمات بحثاً عن عين الحياة، ورأى الشجرة المتكلمة التى أخبرته باقتراب أجله، وغير ذلك الكثير.

وقد اخترت نص الأسطورة من ترجمة البندارى لشاهنامة الفردوسى، وهى ترجمة مناسبة لجو النص من ناحية، ولم يختصر المترجم نص أسطورة الإسكندر اختصاراً كبيراً من ناحية أخرى.

وأسطورة الإسكندر، كما سيأتى فى نص ترجمة البندارى للشاهنامة، تتناول قصة ذلك القائد الشهير صاحب البطولات الخارقة والسيرة الأسطورية منذ ميلاده حتى وفاته، والشخصيات المهمة فى الأسطورة هى شخصيات: الإسكندر، دارا بن داراب، فيلقوس (فيليب)، ناهيد، كيد الهندى، قيذافه ملكة الأندلس. وجاء نص الأسطورة تحت العناوين التالية:

- ذكر ذكر نوبة داراب بن بهمن بن إسفنديار
- ذكر نوبة دارا بن داراب
- ذكر الخبر عن سلطان الإسكندر بممالك إيران
- مسير الإسكندر إلى قنوج وما جرى بينه وبين ملكها

- وصول الإسكندر إلى بيت الله الحرام

- عبور الإسكندر إلى ديار مصر وما جرى بينه وبين قيذافه ملكة الأندلس

- تطواف الاسكندر فى أقطار العالم وما رأى فيها من العجائب

- ذكر وفاة الإسكندر



أسطورة الإسكندر

ذكر نوبة داراب بن بهمن بن إسفنديار

لما جلس داراب على تخت السلطنة، واحتفل مجلسه بالأكابر والأمراء والأعيان قال: " إنا لم نرزق هذه الدولة بسعى ولا جهد بل الله تعالى تفضل علينا عفواً. ولم ير أحد أعجب من أمرنا أمراً. فلا نؤدى شكر هذه النعمة إلا بالعدل والإحسان وما يخلد لنا بالذكر الجميل إلى آخر الزمان. والله تعالى يجعل قلوب الرعية بنا مسرورة وصدورهم بأيامنا مشروحة.

قال: فدخلت الملوك تحت طاعته، وحملت الإتاوات من الهند والروم وغيرها من الأقاليم إلى حضرته. ثم إنه ركب ذات يوم إلى الصحراء ليشاهد الخيول السوائم فى المروج والرياض فصعد فى الطريق إلى جبل عال فرأى تحت الجبل بحراً عظيماً. فأمر بإحضار المهندسين من بلاد الروم والهند. وأمرهم أن يشقوا من تلك البحيرة نهراً فامتثلوا أمره. ثم أمر ببناء مدينة كبيرة على ذلك النهر وسماها داراب كرد. وهى معروفة بدارابجرد من بلاد فارس. وبنى بها بيت نار. وأسكن المدينة أصحاب الحرف الصناعات.

ولما استقر على سريره بث الجنود فى جميع أطراف الممالك، واستسخر جميع الملوك. ثم إنه خرج عليه رجل من العرب يسمى شعيب بن قتيب فجمع مائة ألف فارس من أولى النجدة والبأس، وأبناء الرماح والصفاح. فنهض إليهم

داراب فى عدد كثير فالتقوا واتصل الحرب بينهم ثلاثة أيام. ولما كان اليوم الرابع انهزمت العرب وقتل شعيب. فأطاعه سائر ملوك العرب والتزموا الخراج إليه. فنفذ داراب إلى بلادهم من يأخذ منهم خراج السنة الماضية مع خراج السنة الحاضرة. وسار من ذلك المعترك بجموعه متوجهاً نحو بلاد الروم. وكان ملكهم يسمى فيلقوس فنهض إليه من عمورية فى أكابر حضرته وأركان دولته مع عسكر عظيم فالتقوا وجرت بينهم وقعتان عظيمتان.ولما كان اليوم الرابع هرب فيلقوس وأصحابه وتركوا جميع ما كان معهم من الخيل والأسلحة والعتاد والعدة، ومضوا ورماح الإيرانيين فى أدبارهم حتى دخل فيمن سلم إلى عمورية فتحصن بها. وأرسل إلى داراب بعض دهاة حضرته مع صندوقين من الجواهر الشاهية وتحف ومبار ومماليك وجوار يسأله أن يجيبه إلى الصلح ويجنح معه إلى السلم، ويقول: " لما قصد الملك قتالى وتوغل بلادى وعزم على أخذ عمورية التى هى دار ملكى ومقر عزى لم أجد بداً من ملاقاته وممانعته. وبعد أن جرى ما جرى فليفعل الملك الآن ما يليق بكرمه وحسبه ونسبه ". قال: فاستحضر داراب عن ذلك أعيان حضرته وأرباب دولته، وعرض عليهم رسالة صاحب الروم، واستشارهم فى الأمر. فقالوا: " إن الملك أعلم وهو بالرأى والتدبير أبصر. وإن وراء ستارة هذا الملك بنتاً فى غاية الحسن كأنها الشمس الطالعة، ذات قد كالسرو الباسق، وشعر كالليل الغاسق، وثغر كاللؤلؤ المتناسق. فإن رأى الملك خطبها إليه ". فأحضر الرسول وأمره بأن يقول لقيصر: " إن كنت تريد ألا ينتهك ستر الحشمة من وجه حالك فزوجنى ابنتك ناهيد التى هى وراء سترك، وجهزها إلى مع ما تقرر من الخراج ". فرجع الرسول بهذا الجواب إلى قيصر فسر بما التمسه من المصاهرة، وترددت السفراء بينهما فى تقرير الخراج وكميته. فاستقر الأمر على أن يؤدى إلى داراب كل سنة مائة ألف بيضة وزن كل بيضة أربعون مثقالاً

من الذهب الأحمر. فقسمها قيصر على جميع أمراء الروم. ثم أمر جميع فلاسفة بلده أن يستعدوا للتأهب للخروج في صحبة ابنته. ثم خرجت في مهدها محفوفاً بالأساقفة يقدمهم سكوبا وهو أعلمهم وأزهدهم. وخلف المهد ستون جارية بالأكاليل والشنوف، على يد كل واحدة منهن جام من الذهب مملوء من الجوهر، مع عشرة أحمال من الديباج الرومي المنسوج بالذهب والجواهر، وثلثمائة حمل من الملابس والمفارش، إلى غير ذلك من النفائس التي تجلب من الروم. فلما وصلت العروس وسلمها سكوبا إلى صاحبها داراب ثنى عنانه وعاد إلى بلاد فارس.

قال: فاتفق أن ابنة قيصر كانت ذات ليلة مضطجعة مع داراب في الفراش فتنفست فشم من نكهتها رائحة كريهة فنفرت نفسه منها واهتم بسبب ذلك. فجاءوا بالحكماء والأطباء فعالجوا تلك العلة منها بدواء يسمى الإسكندر في بلاد الروم فشفيت وطابت نكهتها، غير أن تلك النفرة استمرت على قلب داراب. وكان لا يميل إليها ولا يقرب منها، وبلغ به الأمر إلى ردها إلى أبيها. فانصرفت مهمومة حزينة وقد احتوت على حمل منه ولم تطلع عليه أحداً. فلما تم لها تسعة أشهر ولدت ابناً فسمته أمه الإسكندر تيمناً باسم الدواء الذي وجدت عليه الشفاء. فلم يظهر ملك الروم أنه ولد داراب، واظهر أنه ولده. ثم إنه شب وترعرع فكان تظهر عليه الشمائل الخسروانية، وتسمع من منطقه المعاني البهلوانية. وكان قيصر يحبه ويؤثره على ولده إلى ان كبر ولبس وجهه طوق الشهامة، وطال منه نجاد الصرامة. فجعله فيلقوس ولي عهده والقائم مقامه من بعده، وعلمه جميع الآداب الملوكية حتى صار لا يصلح إلا للسلطنة والجلوس على سرير المملكة.

قال: وكان لداراب ولد ذو شكل ومنظر سماه دارا باسمه. ولما مضت عليه

اثنتا عشرة سنة من ملكه مرض فأحضر أرباب دولته، وقال: إنى قد عهدت إلى دارا وجعلته ولى عهدى فاسمعوا له وأطيعوا. ثم مات وصار الأمر بعده لولده.

ذكر نوبة دارا بن داراب

قال صاحب الكتاب: كان دارا هذا ملكاً قوى البطش، صعب العريكة، ريض الطبع، ذلق اللسان، مهيب المنظر. فلما جلس على السرير قال لمن حضر من أعيان المراء والأكابر: " ألا من خلع ربقة الطاعة خلعنا رأسه من جسده، ومن أضمر سوءاً أخرجناه بالسيف من خلده، ولست أريد وزيراً ولا مدبراً وظهيراً، بل أنا الملك والوزير، والمستشار والمشير ". واستحضر الكاتب وأمره فكتب إلى كل ملك من أصحاب الأقاليم كتاباً كأنه خنجر يكاد يقطر دماً مشحوناً بالتهديد والإيعاد والمحافظة على طرائق السداد والرشاد. ثم فتح أبواب خزائن أبيه، وأطلق أرزاق العساكر، وفرق لهم شمل الخبايا والذخائر،ثم عرضهم وجعل كل طائفة منهم تحت راية إصبهبذ أصيل، وأمير كبير، ونفذ كل واحد منهم إلى طرف، وأطاعه جميع ملوك الأرض، وانثالت على حضرته رسل الهند والصين والروم وسائر الأقاليم بالهدايا والتحف والإتاوات والخدم. وبنى بالأهواز مدينة سماها زربوش، وبنى بأرض الجزيرة مدينة أخرى واسعة وسماها دارنو، وهى التى تسمى اليوم دارا، على ما قاله غير صاحب الكتاب.

قال: ومات فى عهده فيلقوس صاحب الروم فاضطربت بموته أمور بلاده حتى قعد الإسكندر مقعد جده من السلطنة فأصلح الفاسد ولم الشعث. وكان فى ذلك العهد فى بلاد الروم الحكيم سطاطاليس ذو الذكر الشهير، فدخل على الإسكندر وقال: " أيها الملك! إن هذا التخت قد رأى مثلك كثيراً، ولا يدوم مع من تسنمه إلا قليلاً، وأجهل من تحت السماء من لا يقبل مواعظ العلماء. وإنا من التراب خلقنا وله ولدنا، وعجز بنا أن نميل إليه ونحرص عليه. فغن أحسنت بقى

ذكرك ودام ملكك. وإن أسأت لم تحصد غير ما زرعت. وعن قريب تفارق التاج والتخت، وليس يأخذ بيد الملوك إلا الإحسان وبالإساءة يحرم الخير الإنسان ".
فاستحسن الإسكندر كلامه، واستغزر فضله. فصار لا يصر إلا عن رأيه، ويبالغ في إكرامه حتى يجلسه معه على تخته. فجاءه رسول دارا لطلب الإتاوة المعينة المذكورة فعظم ذلك على الإسكندر، واستشاط من الغضب مستعراً كاللهب وقال للرسول: " أخبر صاحبك بموت الطائر الذى كان يبيض بيض الذهب. وقل له إنه قد مات وإن حظك قد فات ". فارتاع الرسول لجوابه وانصرف مختفياً إلى صاحبه فجمع الإسكندر جيوشه وفرق عليهم ذخائر جده وكنوزه. وأعد واستعد، وخرج يخفق على رأسه لواء أخضر. فجاء إلى مصر ونزل عليها فاتصل الحرب بينه وبين صاحبها أسبوعاً فغلب الأسكندر واستأمن إليه أكابر أهل مصر وانضموا إليه. فارتحل بهم من مصر قاصداً قصد إيران، فانتهى الخبر بذلك إلى دارا فخرج من اصطخر فى جنود قد سدوا بالرماح طريق الهبوب على الرياح. وسار حتى نزل على الفرات. ووصل الإسكندر وخيم بإزائه بحيث لم يكن بين العسكرين أكثر من فرسخين. فتنكر الإسكندر وركب فى زى رسول واستصحب عشرة من خواصه يعرفون لسان افيرانيين، وكلٌ حُول قُلب، وقصد بذلك أن يقف على حال عدوه عياناً. فأتى ميم دارا فأنهى إليه أن رسولاً من صاحب الروم قد وصل فأذن له، فدخل وقبل الرض ومثل قائماً ودعا له وقال: إن الإسكندر يقول: " إنى لم أقصد قتال الملك ولا منازعته فى ملكه، وإن غرضى أن أجوب البلاد، وأجول فى اقطارها واشاهد عجائبها، ولم أضمر غير الحسنى. فإن كنت تضن بتراب أرضك أن أدوسه وتمانعنى بخيلك ورجلك غير مطلع على ما فى ضميرى ومصمماً على قتالى فأنا موافقك على ما تختار، فاختر يوماً للملاقاة، فلست بالمتنكب عن مقاتلة الملوك وإن كانوا فى العدد الكبير والجم الغفير ". قال: فلما وقف دارا على عقله ورأيه وشهامته وذكائه

ورآه كأنه داراب أبوه قاعداً على تخته في تاجه وطوقه قال له: " ما اسمك؟ وإلى من تنتسب؟ فقد أعجبتني بما أرى فيك من الشمائل الكيانية. وما أظنك إلا الملك الإسكندر، وكأنك لم تخلق إلا للتخت، ولست تصلح إلا للتاج والطوق ". فقال الإسكندر: " كيف يقدم على هذا مثل ذلك الملك مع ما خص به من الدهاء والعقل؟ وإنما هذه الرسالة هو الذى حملنيها كما تحملت ". فأمر به الملك فأنزل فى موضع يليق به. ثم لما مدوا السماط استدعاه فحضر، ولما رفع السماط جلس للشراب فأخذت السقاة فى إدارة الأقداح الذهبية، فكانت النوبة كلما انتهت إلى الرسول شرب ووضع القدك فى حجره، ولم يرده إلى ساقيه، حتى اجتمعت عنده أقداح عدة. فأعلم الساقى الملك بصنيعه، فقال: " سله عن السبب فيما صنع ". فلما انتهى إليه قال له: " أيها الشهريار! لم تحط هذه الجامات فى حجرك؟ ". فقال: " هكذا رسم ملوك الروم أن الرسل إذا شربوا عندهم كانت الظروف لهم. فإن كان رسم إيران على خلاف ذلك فردها إلى خزانة الملك ". فضحك الملك لمقاله، وامر بإحضار جام مملوء من الجواهر الشاهية فوضعه فى يده. قال: فاتفق أنه حضر المجلس رجل كان دارا قد أنفذه إلى الروم لطلب الخراج فبطش به الإسكندر. فلما نظر إلى الإسكندر عرفه فدنا من الملك وأطلعه على الحال وقال: " إن هذا هو الإسكندر الذى مضيت إليه أطالبه بالخراج فأهانني فخرجت من عنده وهربت. وإنه لإدلاله بقوته أقدم على هذه الحركة ليعاين أحوال الملك ويقف على كمية العسكر، فأكثر دارا عند ذلك النظر إلى الإسكندر، فأحس بذلك وتصبر إلى أن قرب وقت الغروب فاهتبل غرة المك وقام إلى الدهليز وخرج فركب فى أصحابه ونجوا بأنفسهم طرداً وركضاً. قال: فالتفت الملك إلى مكانه فلم يجده فنفذ إلى خيمته فما وجد فيها، فأركب فى طلبه ألف فارس فاتبعوا أثره ففاتهم ولم يدركوه وانصرفوا بعد أن شارفوا طلائع الروم، وعادوا وقد فاتهم الملك اليقظان وطرف سعادتهم ناعس وسنان.

قال: ولما طلعت الشمس ركب دارا وعبر الفرات فى جيشه أجمع، فصافه الإسكندر فى جنوده يقدمهم فيول كشم الهضاب ودكن السحاب، فالتقوا ودارت رحى الحرب بينهم أسبوعا، ولما كان اليوم الثامن ثارت دبور الإدبار فلطمت وجوه الإيرانيين بعجاج أغطش نهارهم، وأعمى أبصارهم، فغلبت الروم بعد أن كانت مغلبة، وانهزم الإيرانيون فتبعهم افسكندر فى عساكره إلى شاطئ الفرات فقتل منهم خلقاً كثيراً، وانصرف إلى مخيمه وقد شرع أمر الروم فى الاعتلاء وأخذت نار الفرس فى الانطفاء. ولكل أجل معلوم، ولا يدوم إلا ملك الواحد القيوم.

قال: ففرق دارا رسله فى أقطار بلاده، وطير كتبه على أطراف ممالكه، وحشد وحشر خلقاً عظيماً، واستأنف الأمر فعاد بعد انقضاء شهر وعبر الفرات، ونهض إليه الإسكندر فالتقوا واتصل الحرب بينهم ثلاثة أيام، فقتل من الإيرانيين خلق، وكانت الدبرة عليهم، فدارت على دارا دائرة السوء فولاهم ظهره، وركب الإسكندر كالريح العاصف أثره. وأمر بأن ينادى نداء الأمان فى المنهزمين، وأوعز باستمالتهم أجمعسن، فاستظل الإيرانيون عند ذلك بظل أمانه، وتمسكوا بعصم إحسانه، فأقام الإسكندر بعد هذه الوقعة فى مكانه ذلك أربعة أشهر، وفرق ما غنم من الإيرانيين على عساكره.

وسار دارا حتى وصل إلى جهرم، فاستقبله أكابر الفرس متوجعين لما أصابه فمضى إلى إصطخر، وكتب إلى أصحاب الطراف وإلى الأمراء والأعيان يستحضرهم فحضروا فجمعهم فى إيوانه. وقال: " إن ملوك الروم كانوا من قبل صيداً فى أيدينا وأضحوا الآن يصيدوننا، وإنهم كانوا أذل من الثعالب فصاروا كالنمور، وكانوا أعجز من البغاث فعادوا كالصقور، وقد رضوا من قبل أن يتركوا فى أطمار الخمول ضارعين فصاروا الآن جبابرة فى ملابس القهر

راقلين. فإن تعاضدتم متوازرين وتظافرتم متظاهرين كفينا شرهم ونفينا ضرهم". وكانت عينه فى أثناء خطابه تدمع، وقلبه يكاد يتصدع، فوثب الحاضرون وقالوا: " إنا ملاقو عدونا وباذلون جهدنا فى الدفاع عن أنفسنا وأهالينا، ونصابر العدو، ويشد كل منا ذيله بذيل صاحبه ". فأمر بتفريق الأموال والخيل والأسلحة عليهم حتى تجهزوا وأخذوا أهبتهم. فبلغ الخبر الإسكندر وهو بالعراق بانتعاش دارا وارتياشه وإعداده واستعداده، فأقبل إلى فارس فاستقبله دارا فى عساكر كثيرة لا يحويهم الحصر لكنهم قلوا حين خانتهم السعادة وفاتهم النصر، فالتقوا وجرت بينهم وقعة أخرى عظيمة فانهزم دارا أيضاً وهرب إلى كرمان. وأقبل الإسكندر حتى استولى على إصطخر التى كانت مستقره ومستقر الملوك الماضين قبله. فأمر فنادى مناديه: " ألا من لاذ بعصمة الأمان وآثر الطاعة على العصيان أوطأناه بساط النعم، وآمناه من مخاوف النقم، وأسونا كلمه، ورقعنا خرقه، ومن لم يقابل أمرنا بالامتثال عركناه عرك الرحى للثقال.

وأما دارا فإنه لما وصل إلى كرمان افتقد من أصحابه مقدار الثلثين، وجمع من حضره من وزرائه وقال لهم: " ماذا ترون؟ وبماذا تعالجون هذا الداء العضال؟ ". فقالوا: " أيها الملك! اتسع الآن خرقنا على الراتق، وغمرتنا أمواج الدواهي والبواقع، وصارت نساؤنا وأولادنا فى أسر افسكندر وتحت يده، واحتوى أيضاً على مخدرات الملك وكنوزه وكنوز آبائه الماضيينوذخائر أسلافه الأكرمين، وقد انسدت علينا الأبواب سوى باب المسالمة والمداراة والرضى بأن تكون مرعياً لا راعياً، ومحكوماً لا حاكماً. فاكتب إليه فى هذا المعنى كتاباً تدفع به الشر عنك فى العاجل إلى أن يفرج الله فى الآجل، ولا يمتنعن الملك فى مخاطبته بذلك، ولا يضيقن به جنانه، فإن من يذكر النار لا يحترق لسانه ". فكتب إليه كتاباً مشحوناً بالخضوع والضراعة والطواعية والاستكانة. فسأله فيه أن يكف حد بأسه عنه ويجنح معه إلى السلم، ويعده فيه أنه

إن رد إليه مخدراته وحرانره سلم إليه دفائن كشتاسب وذخائره، ولا يخرج بعد ذلك عن طاعته، ولا يعدل عما يعود بمظاهرته ومعاضدته. فلما وصل على الإسكندر كتابه كان من جوابه له أن قال: " إن مخدرات الملك مستقرات بأصبهان، ومعاذ الله أن يتعرض لهن أحد، أو يمتد إلى ذخائرهن منا يد. وأنت إن نشطت إلى الرجوع إلى إيران فليس لك من ذلك مانع ولا دافع، والممالك كلها لك وبحكمك، ونحن مطيعون لأمرك ". فلما وصل الجواب إلى دارا قضى العجب من تصاريف الزمان ودوائر الحدثان، وقال: " أصعب من القتل عندى أن أشد فى خدمة الرومى وسطى، وإذا آل الأمر إلى ذلك فالموت ولا هذا الصوت، والقبر ولا هذا الصبر، وإذا طما البحر زاخر العباب فلا موقع عنده لقطر السحاب ".

ثم إنه لما عجز عن جميع وجوه الحيل كتب إلى فور ملك الهند كتاباً يذكر فيه ما دهاه من البائقة التى لم تبق له باقية، والداهية التى صارت منته لها واهية، ويسأله أن ينجده على أن يحمل إليه من الجواهر ما يملأ كنوزه ويغنى جنوده. فبلغ ذلك إلى الإسكندر فركب وطار بجناح الكض إلى كرمان، فصافه دارا بمن كان معه من أصحابه فانتفضوا فى أسرع من رجع الطرف ولمع البرق، واستأمن إلى الإسكندر أكثرهم، وهرب دارا فى ثلاثمائة فارس.

وكان معه دستوران لا يفارقانه ليلاً ولا نهاراً ويصحبانه سراً وجهاراً، يسمى أحدهما ماهيار والآخر جانوشيار. فقال أحدهما لصاحبه: " إن هذا الشقى لن يرى بعد هذا التاج والتخت. والرأى أن نغتاله ونتوسل بقتله إلى الإسكندر، فإنه يرفع بقدرنا وينوه بذكرنا، ويولينا بعض الأقاليم ". فوافق الغادران على ذلك. فلما جن الليل بينا دارا يسير بينهما إذ ضربه جانوشيار بمزراق فأنفذه فيه فانقلب عن ظهر الفرس صريعاً. فتركاه على حاله وأقبلا على الإسكندر،

وهو على الأثر، فقالا له: " أيها الملك! إنا قتلنا عدوك مغافصة، فليهنك التاج والتخت ". فقال: " إن كنتما صادقين فأوقفاني على مصرعه ". فسارا بين يديه إلى أن أوقفاه على دارا، فنزل إليه الإسكندر، وأمر بأخذهما والاحتياط عليهما في حفظهما، فرفع رأس دارا ووضعه في حجره، ومسح وجهه بيده، وبكى حتى تساقطت عبراته على خده، ورفع التاج عن رأسه، وحل أزرار جوشنه، وأخذ يلاطفه ويقول: " أيها الملك! إن استطعت فقم واقعد في المهد، وإن قدرت فاركب الفرس فإني أجمع عليك أطباء الروم والهند حتى يعالجوك، وإذا شفيت سلمت إليك التاج والتخت وأفوض هذه الممالك إليك. وسأبكي عليك دماً لما أراه بك وكيف لا يكون هذا وأنا وأنت تفرعنا من جرثومة واحدة وقددنا من أديم واحد. وسأصلب الفاتكين بك المغتالين لك ". فلما سمع دارا ذلك منه دعا له وأثنى عليه ووصف له ما أوتيه من جلالة القدر وفخامة الأمر وعلو الشأن وروعة السلطان وكيف تقلب به الزمان حتى صار كما يراه ذليلاً وبأيدي عبيده قتيلاً. ثم أوصى إلى الإسكندر بتقوى الله والإحسان إلى الخلق عامة وإلى أولاده ونسائه وأقاربه خاصة. وسأله أن يتزوج بابنته المسماة روشنك، وقال: " لعلك ترزق منها ولداً يجدد اسم إسفنديار، ويزين بدين زردشت الديار، ويحافظ على خدمة النيران وإقامة مراسم النوروز والمهرجان، حتى لا تنمحي آثار كشتاسب ولا يزول رسم لهراسب ". فتقبل الإسكندر وصيته، ووعده أن يقرن بالإسعاف مسألته. فأخذ دارا بيده ثم وضعها على فيه ثم ودعه وخرجت روحه. فبكى الإسكندر ونثر على تاجه التراب وشق على نفسه الثياب. فعمل له ناووساً على مقتضى دينهم وشريعتهم، ونصبوا فيها تختاً كمن الذهب. وكفنوه في الوشي والحرير، وعمروه بالمسك والكافور، ووضعوه في تابوت من الذهب. ثم حملوه والإسكندر يمشي بين يديه راجلاً في جميع أكابر الروم والفرس حفاة حسراً إلى أن أدخلوه إلى ناووسه ووضعوه على سريره، ثم سدوا بابه. ثم أمر الإسكندر

بنصب جذعين عند الناووس، وصلب اللذين غدرا به حيين. وأمر برجمهما فرجما عبرة لمن نظر وموعظة لمن اعتبر.

فلما رأى الإيرانيون حسن سيرة الإسكندر وما دارى به دارا فى حياته، وعامله به بعد مماته، تسارعوا إلى طاعته وتصافقوا على الرضى بسلطنته، وأطلقوا الألسنة بالثناء عليه، ورفعوا الأيدى بالدعاء له. قال: فقدم من كرمان إلى أصفهان بعض أصحاب الإسكندر فبلغ سلامه إلى مخدرات دارا وأصحابه، وأعلمهم بما جرى عليه، وأخبرهم بما فعل الإسكندر معه من المراعاة والمداراة وما أوصى به إليه، وأن الإسكندر حلف بالأيمان المغلظة أنه لم يضمر له سوء الذى جرى عليه ولم يرصده له، ولكنه من بيته نبغ عدوه. فوعدهم الرسول عن لسان الإسكندر ومناهم وسلاهم وعزاهم، وأخبرهم بأن الإسكندر قد أصبح داراهم. ثم ركب من كرمان متوجهاً نحو إصطخر معتصباً بتاج الشرف والفخر. والله مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

ذكر الخبر عن سلطان الإسكندر بممالك إيران

قال: لما جلس الإسكندر على سرير السلطنة وعظ من حضر، ونصح وقال: إن أبوابنا مفتوحة للمتظلمين. ولو أتونا فى جنح الظلام لكنا بأيديهم آخذين. وإذ توجنا الله بتاج السيادة وفتح لنا أبواب السعادة فحق علينا أن نحسن إلى الرعية براً وبحراً وحرثاً وسهلاً. وقد أعفيناهم عن خراج خمس سنين. ولا نتعرض إلا لمن يدعى مشاركتنا فى الملك أو كان من المارقين. وسنغنى بأيادينا جميع الفقراء، ولا نمد بأيدينا إلى ما فى أيدى الأغنياء.

ثم استحضر الكاتب فكتب إلى إصبهان إلى زوجة دارا كتاباً يعزيها فيه، وشحنه بأنواع من التلطف والتعطف، وقال فيه إن دارا زوجه ابنته روشنك.

وشهادات الحاضرين بذلك ناطقة. فجهزوها وأرسلوها في مهدها إلى إصطخر في صحبة موبذ إصبهان وأكابر إيران. وكتب في هذا المعنى كتاباً آخر إلى روشنك. ونفذ الكتاب على يدى فيلسوف. فلما وصل أكرمته زوجة دارا فأحسنت إليه. وأحضرت الكاتب وأمرته أن يكتب جواب كتابه. فكتب كتاباً يشتمل على ذكر توجعها على صاحبها وتسليها بمكان الإسكندر بعده، وأنها تسأل الله تعالى إدامه ملكه. وقالت: " قد بلغنا ما عاملت به الملك وظهر منك من الشفقة والعاطفة، وما أقمته من مراسم عزائه، وصنعته من الاقتصاص له من أعدائه. وأنت الآن لنا بمنزلة ذلك الملك الدارج. فلا زلت ممتعاً بشرف المراتب ورفعة المعارج، مخلد الذكر على تعاقب الأيام وترادف الشهور والأعوام. وأما ما ذكرت من حال روشنك فإنا قد سررنا بهذه المصاهرة المباركة. فالله تعالى يقرنها بالخيرات والسعادات. وهى أمتك ونحن جواريك مصرفات تحت أوامرك". وردوا الفيلسوف بجواب الكتاب. فلما عاد إلى الإسكندر أخبره بجلالة قدر روشنك وفخامة شأنها، وما شاهد في دارها من البهاء والأبهة والرواء والروعة. فأعجبه ذلك. ثم نفذ إلى عمورية واستقدم أمه. فلما قدمت عليه أرسلها إلى إصبهان. وأصحبها تاجاً وسواراً وطوقاً مع أحمال من الثياب وغيرها، وثلاثين ألف دينار برسم النثار، وثلاثمائة من الجوارى الروميات. وصحبها عشرة من علماء الفلاسفة ليترجموا بين يديها. فلما قربت من إصبهان استقبلها أعيان المدينة وأكابرها وعلماؤها وأماثلها. وتلقتها زوجة دارا فدخلت بها وأنزلتها في إيوانها .

ثم هيأت جهاز ابنتها وفيه من الذهبيات والفضيات والملابس والمفارش أحمال محملة مع ما انضم إلى ذلك من الخيل والأسلحة. ورتبت أربعين مهداً لمن يصحب مهدها من النساء من الحرائر والإماء. قال: وأعدت لها خاصة مهداً على رأسه مظلة مرصعة. فخرجت مع أم الإسكندر متوجهة إلى إصطخر. فلما

وصلت ورآها الإسكندر تعجب من جمالها وكمالها وحسن سمتها وحيائها. ولما تمت له هذه الوصلة وطنت ملوك إيران وأكابرها النفوس على طاعته وملازمة الإخلاص فى خدمته. فعمر من تلك الممالك ما خرب من بلادها، وغمر بالعدل والإحسان أهل رباعها وديارها. قلت: ومن آثار عمارة الإسكندر فى ممالك إيران مدينة بإصبهان يقال لها جىّ بنيت على مثال الحية وثلاث مدائن بخراسها منهن مدينة هراة ومدينة مرو، ومدينة سمرقند.

قال: ولما استتبت أموره بإيران عزم على قصد ملك من ملوك الهند يسمى كيداً، وجر العساكر إليه، وسار إلى أن وصل إلى مدينته التى تسمى ميلاب. فنزل عليها وكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالخروج إلى خدمته، والدخول تحت طاعته. فلما وصل إليه الرسول ووقف على الكتاب أكرم الرسول وأجلسه بجنبه وأحسن إليه. وكان قد رأى رؤيا فقصها على معبر من البراهمة فأشار عليه فى تعبيرها بطاعة الإسكندر وترك مخالفته. فكتب جواب كتابه، وذكر فيه أن له أربعة أشياء لا يملكها أحد غيره، ولا مثل لها فى جميع العالم، قال: وإن أمر الملك نفذتها إليه ثم حضرت بنفسى بين يديه. فبعث الإسكنر إليه يسأله عن الأشياء الأربعة. فقال: أحدها بنت وراء سترى ليس لها نظير فى الحسن والجمال وكمال الآداب. والثانى جام إذا ملأته بالماء أو بالشراب لم ينقصه الشرب منه وإن شربت منه مع الندماء عشر سنين. والثالث طبيب إن أقام مع الملك لم يصبه داء مدة حياته. والرابع فيلسوف يخبر الملك بجميع ما يكون قبل وقوعه. فنفذ إليه الإسكندر تسعة أنفس من ثقاته ومشايخ فلاسفته ليستوضح ما قاله، ويقف على صحته. فلما أتوه أمر بتزيين ابنته ثم أذن لهم فى الدخول إليها. فلما وقعت أبصارهم عليها بهتوا لما شاهدوا من صورتها وجمالها، واعترتهم حيرة، وغشيتهم سكرة حتى بقوا عندها زماناً طويلاً وهم لا يشعرون. فلما أبطئوا على الكيد أرسل إليهم يستحضرهم. فلما حضروا قال لهم: " قد أطلتم

عندها المقام ". فقالوا: " أيها الملك! إنا لم ننظر إليها، ولما تمت رؤيتنا لها، ولا لبسنا عندها أكثر من سلام وجواب ". ثم إنهم كتبوا إلى الإسكندر يعلمونه بصفة البنت. فأرسل يطلبها مع الجام والطبيب والحكيم. فبادر كيد الامتثال، وجهز بنته، ونفذها إليه الأشياء الأخر. فبنى بالعروس وأعجبه ما رأى من جمالها وكمالها. ثم تفرغ لتجربة الفيلسوف فنفذ إليه جاماً مملوءاً من السم، وأمره أن يطلى به أعضاءه حتى يزول عنه تعب الطريق ونصبه. فرمى العالم فى الجام ألف إبرة، ورده إليه فأمر الإسكندر فسبكت الإبر، وجعلت بيضة حديد ونفذها إلى الحكيم. فعمل الحكيم منها مرآة مصقولة وبعثها إليه. فأخذها الإسكندر ودفنها تحت الأرض حتى نديت وصدأت ثم ردها إليه فأخذها وجلاها وصقلها بأدوية مركبة بحيث لا يعود جوهرها يصدأ بعد ذلك وردها إلى الإسكندر. فأحضره الإسكندر وسايله عن مقاصد ما جرى من الرموز. قال: " أردت بإلقاء الإبر فى السم الإشعار بأن السم ينفذ فى المسام ويتغلغل حتى يبلغ اللحم والدم والعظم مثل صنيع الإبر. وأما سبك الملك الإبر واتخاذها بيضة حديد فهو إشارة منه إلى أن قلبه قد صار فى هذه الخطوب والوقائع مثل بيضة الحديد، فهو لا يدرك المعانى الدقيقة والرموز الخفية. فعملت منها مرآة إشارة إلى أنى بحذقى فى صناعتى ومهارتى فى علمى أصير قلب الملك كالمرآة فى الصفاء. وأما رد الملك إياها صدئة فهو إشارة منه إلى أن قلبه كان كالمرآة ولكنه صدئ من كثرة إراقته الدماء. فصقلتها ثانياً ورددتها إليه إشعاراً منى بأنى سوف أجلو بالعلم السماوى قلبه، وأنفى عنه كل غين ورين. فاستحسن الإسكندر ذلك منه وأمر بإحضار جملة من الذهب والفضة والثياب مع جام مملوء جوهراً. وأمر بدفع جميع ذلك إلى الفيلسوف. فامتنع من قبوله وقال: " إن معى جوهراً مكنوناً لا يحوجنى فى الليل إلى حارس، ولا أخشى عليه فى الطريق من سارق. ويكفينى من هذه الدنيا مطعم وملبس، ولا تسرنى الزيادة عليهما، وأكره أن أكون حارساً

لغيرهما ". فتعجب الإسكندر من ذلك وقال: " إنى مؤثر لرأيك الثاقب وكلامك النافع وعلمك الوافر ".

قال: وأمر بإحضار الطبيب فسأله عن أعظم أسباب الأمراض. فقال: " أن يأكل الرجل فاضلاً عما يحتمله المزاج، ولا يضبط نفسه عند حضور الطعام ". ثم قال: " وإنى سأركب لك دواء إذا استعملته كنت أبداً صحيح الجسم، قوى النفس، مسرور القلب، مشرق اللون، منجذب الطبع إلى أعمال الخير، ثم لا يعتريك معه الشيب، ولا يضرك كثرة الأكل، ويزيد فى شهوتك وحفظك ودمك، ولا تحتاج بعده إلى شرب دواء آخر ". فقال الإسكندر: " إن فعلت ذلك كنت عندنا الموقر المكرم ". وخلع عليه وأكرمه، وقدمه عل جميع من بحضرته من الأطباء. فصار إلى بعض الجبال وجمع الحشائش التى هى أخلاط هذه الدواء. ولما فرغ من عمل الدواء الجبلى غسل به عقب الملك. وكان من بعد يلازمه ويحفظ صحته. قال: وكان الإسكندر كثير الباه مكثراً من الاستمتاع بحظاياه. فأحس الطبيب بضعف في مزاجه، وقال: " إن مضاجعة النساء تجعل الشبان شيباً. ولا أشك أنها قد أثرت فى الملك ". فأنكر الإسكندر ما توهمه الطبيب من ضعفه، وقال: " أنا نشيط النفس قوى المزاج ". فلم يقبل الطبيب ذلك منه. وركب دواء يزيل الضعف. فنام الإسكندر تلك الليلة وحده ولم يقرب أحداً من نسائه. فلما أصبح الطبيب دخل بالدواء عليه فنظر إلى دليله فأراق ذلك الدواء، وقعد مع ندماء الملك فى مجلس العيش والطرب. فقال الإسكندر: " ما الذى أوجب إراقتك للدواء بعد أن تعبت فى تركيبه؟ ". فقال: " إن الملك قد نام البارحة وحده فزال عنه ذلك الضعف. وإذا نمت أيها الملك منفرداً لم تحتج إلى الدواء أبداً ". فضحك الإسكندر وتعجب من حذقه. ثم أمر له بخلعة وبدرة من الذهب، وفرس أدهم ذهبى السرج واللجام.

ثم إنه أمر بإحضار الجام الأصفر فجاءوا به مملوءاً من الماء البارد. فجعل الحاضرون يشربون منه من أول النهار إلى وقت النوم فلم ينقص ماؤه. فتعجب الملك. وقال: " إنه لا نظير للهنود فى الصناعات والعلوم، وإنهم وإن كانوا قد حرموا حسن الوجوه فقد رزقوا حسن الأفعال. ونحن بعد هذا لا نقول فى بلادهم بلاد الهند بل نقول بلاد السحر ". فالتفت إلى الفليسوف وسأله وقال: " زيادة الماء فى هذا الجام مستندة الى النجوم أم الهندسة؟ ". فقال: " أيها الملك ! لا تستصغر شأن هذا الجام. فقد صرفوا إلى صنعته زمناً طويلاً، وقاسوا منه تعباً كثيراً. ولما عزم الكيد على اتخاذه جمع عليه حذاق المنجمين، واستحضر من أهل كل إقليم أعلمهم بصناعة التنجيم. فطبعوه على طبائع النجوم فهو يجذب بخاصيته الماء من الفلك بإذن الله، ويستدره من الهواء بحيث لا تدركه حاسة نظر الإنسان. وهو كحجر المغناطيس فى جذبة الحديد. فلا يزال مملوءاً لا يتطرق إليه نقصان. فتعجب الإسكندر وقال: " إنا نكتفى من الكيد بهذه الأشياء الأربعة، ولا ننقض عهده أبد الدهر، ولا نطالبه بشئ آخر مدة العمر ". ثم إنه أوقر مائتى دابة ذهباً وجوهراً، وصار بها إلى بعض تلك الجبال وحفر فيها حفائر كثيرة، وكنز فيها تلك الأموال الوافرة، وأهلك الذين تولوا حفرها وقاسوا أمرها.

مسير الإسكندر إلى قنوج
وما جرى بينه وبين ملكها

قال: ثم ارتحل الإسكندر من ميلاب وتوجه إلى قنوج. وكان لها ملك يعرف بفور. فكتب إليه كتاباً قال فيه: " وإذا وقفت على هذا الكتاب فتحول من ظهر التخت إلى ظهر الفرس، وأقبل إلى الخدمة، ولا تشاور أحداً فى ذلك حتى لا يطول عليك الأمر ". فلما وصل الكتاب إليه استشاط الهندى وهاجت زبراوه

وتنمر. فأجاب عن كتابه وقال فيه: " الحمد لله الذى لم يجعلنا ممن يتعدى فى كلامه طوره، ولا ممن يتهجم على أمر لم يسبر غوره. كيف تستنهض مثلى إلى خدمتك ولا تشاور نفسك ولا تراجع عقلك؟ وكأنك لا تعلم أنى فور بن فور الذى لم يحتفل قط بأحد من القياصرة. فإن كان أبوك تجاسر من أبى على مثل ذلك فتجاسر عليه. وكأنك اغتررت بنكبة دارا حين انقضت أيامه، وأخفر ذمامه، فأقبلت مدلاً بباسك وشدة مراسك. فلا تظهرن فى الإقدام علينا جسارة، ولا تأمنن فى الجرأة على معاملة الملوك خسارة ". فلما وقف الإسكندر على جوابه استعد لقتاله وسار إليه. وكانت الطرق إلى بلاده وعرة فأبدع بأكثر عساكره. فضج الروم منهم إليه وقالوا: " الرأى أن نرجع عن هذا الوجه ". فاغتاظ الإسكندر وزجرهم وقال: " حسبى الله ناصراً، ثم فرسان إيران أنصاراً. فارجعوا أنتم فما لى فيكم من حاجة ". فاعتذروا إليه عند ذلك واستقالوه العثرة فصفح عنهم الملك. ثم إنه قدم مائة ألف فارس من الإيرانيين وأتبعهم بأربعين ألفاً من الروم. ورتب خلف الروميين أربعين ألفاً من فرسان مصر وآسادهم المذكورين. وسار بنفسه خلفهم فى اثنى عشر ألفاً من أكابر إيران، وأقارب دارا المنتمين إلى الشجرة الكيانية والدوحة الخسروانية، ومعه ستون نفساً من فلاسفة الروم وعلمائهم المنجمين. فلما بلغ الخبر بذلك إلى فور حشد واحتشد وبرز فى جنوده وفيلته. فقال للإسكندر من كان معه من دهاة الهند: " إن مع فور فيلة عظاماً لا تستطيع خيلنا بين يديها ثباتاً ومقاماً ". فاجتمع أصحاب الرأى وتفكروا فى الاحتيال لدفع معرة تلك الفيلة. فعملوا صوراً من الحديد مجوفة على أشكال الخيل، وعليها ركابها بصفتها وكيفيتها لكى يحشوها نفطاً ويطرحوا فيها النار عند الملاقاة. حتى إذا صدمتها الفيلة احترقت خراطيمها وولت. فارتضى الإسكندر ذلك واستحسن ما عملوا. فأمر من كان معه من صناع مصر والروم وغيرهم فعملوا صوراً كثيرة على ذلك المنوال وحشوها بالنفط واجتروها إلى

المعترك. ولما كان يوم القتال صف منها الإسكندر صفوفاً مرصوصة فأقبل فور في جموعة وفيوله، وشياطين رجاله وخيوله. فأمر الإسكندر بإلقاء النار في أجواف الصور فاضطرمت. فتقدمت الفيلة فأشرعت خراطيمها نحوها لتختطفها. فلما وجدت مس النار نكصت على أعقابها، وقلبت ظهر المجن على أصحابها، وانحت عليهم بخراطيمها وأنيابها. فانهزموا وركب الإسكندر بأصحابه أكتافهم، وأتبعهم إلى أن غربت الشمس فنزل بين جبلين، وبث الطلائع وأمر بحفظ الطرق. ولما تنصب حاجب الشمس وتشعشعت أنوارها ارتجت الأرض بأصوات البوقات ونفخات القرون والنايات، واصطفت عساكر الهند كظلمات بعضها فوق بعض. فتلقاهم الإسكندر بصفوفه وجنوده. فلما تقابل الفريقان وتوازى الجمعان خرج الإسكندر من الصف وبيده سيف مهند فنفذ فارساً إلى فور يسأله أن يبرز إليه من الصف ويسمع كلامه شفاهاً. فخرج إليه فقال له الإسكندر: " إني وإياك ملكان متنازعان، وكل واحد منا يمت بشجاعته ويدل بقوته، فلا ينبغي أن يكون القتل والقتال نصيب عساكرنا. والرأى أن نتبارز. وكل من غلب منا يكون له الأمر على عساكر صاحبه ليستريح هذا العدد الكبير والجم الغفير من القتل والفتن. فأفكر فور فرأى نفسه في قوته كركن من علم، ورأى الإسكندر في نحافته كشقة قلم. ورأى تحته فرساً كثعبان، ورأى تحت الإسكندر فرساً كقضيب بان. فاغتنم إجابته إلى المبارزة، ووثق من نفسه. فتقدم الإسكندر، وكأنه خاطبه بما عبر عنه الشاعر حيث يقول:

هلم إلى نحيف الجسم مني ... لتنظر كيف آثار النحاف

ألم تر أن طائشه لظاها ... نتيجة هذه القُضُب العجاف

ولي جسد كواحدة المثاني ... له كبد كثالثة الأثافي

قال: فتبارزا وتصاولا ساعة فأوجس الإسكندر خيفة في نفسه وندم على مبارزته إياه. فاتفق أن سمع الفور جلباً وشغفاً من خلفه فالتفت فضربه الإسكندر بسيفه ضربة نزلت من عاتقه إلى صدره، فخر قتيلاً. وماج الهنود بعضهم في بعض فعزموا على الثبات للحرب. فنادى منادى الإسكندر: " يا أكابر الهند ! ما بالكم تقدمون على إراقة الدماء وتخوضون غمرة الهيجاء؟ اعلموا أن الإسكندر قد صار فوراً، فلا تستشعروا منه حذاراً ولا نفوراً. واستأمنوا إليه، وعولوا في حفظ نفوسكم عليه ". فلما علموا بقتل ملكهم طرحوا الأسلحة فبادروا إلى خدمة الإسكندر حاسرين، وتمسكوا بعصم الأمان مستجيرين. فرد الإسكندر عليهم أسلحتهم، ووعدهم ومناهم وقال: " إن خزائن صاحبكم على حرام، وسأفرقها عليكم. فلا تطرقوا إلى قلوبكم حزناً، وثقوا منى بالحسنى. فإني سأجذب بأضباع الهنود، وأجعلهم أصحاب الأعلام والبنود. ثم إنه دخل إلى دار ملك فور وجلس على تخته وأقام به شهرين. وفرق جميع ذخائره ودفائنه على العسكرين. وكان فيهم بهلوان كبير يسمى شورك فولاه ممالك الهند، وأقامه فيها مقام نفسه، وأوصاه وقال: " إياك واكتناز الذهب فإنه للذهاب ولا تعمر خزائنك فإن مصيرها إلى الخراب ". ثم ارتحل منها موصول الحاجة بالنجاح وسار قاصداً قصد الحجاز.

وصول الإسكندر إلى بيت الله الحرام

قال: فسار الإسكندر مولياً وجهه شطر المسجد الحرام لزيارة بنية إسماعيل عليه السلام التي أضافها الله المنزه عن المكان إلى نفسه ودعا بيته الحرام. وإنما نسبه إلى نفسه ليعرف الناس طهره، ولكي يولوا وجوههم شطره، ويأتوه من كل فج عميق، وينثالوا عليه من كل مرمى سحيق. ولم يزل منذ كان موطناً للطاعات ومهبطاً للخيرات. قال: ولما وصل الإسكندر إلى القادسية بلغ الخبر

إلى نصر ابن قتيب، وكان ممن يتزين به الحرم، فركب في جماعة من فرسان العرب، وأقبل إلى الإسكندر. ولما قرب من مخيمه تقدمه فارس وأخبره بوصول نصر، وأعلمه أنه من أولاد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن. فاستقبله الإسكندر وأوسعه تبجيلاً وإعظاماً، وتفخيماً وإكراماً. فسر نصر بذلك ثم أخبره بنسبه وأفضى إليه بعجره وبجره، وسأله الإسكندر ذات يوم وقال: " أيها السيد الصادق ! من الذى يتولى أموركم ويتقلد السلطنة في بلادكم؟ ". فقال: " أيها الملك ! إن صاحبها رجل يقال له خزاعة، وإن إسماعيل لما توفي جاء قحطان من البادية في عسكر كثير فاستولى على ممالك اليمن والحجاز، وانتزعها من أيدى آل إسماعيل فملأها ظلماً وجوراً، وقتل خلائق من أهلها صبراً. ولما مات قحطان خلفه خزاعة فبقيت البلاد تحت ظلمه وحكمه فهي الآن من أقصى اليمن إلى بحر مصر في يده وبأمره. وآل إسماعيل مستشكون من جوره وحيفه ". فلما سمع الإسكندر ذلك قهر خزاعة ومن ينتسب إليه فانتزع الملك منهم وقرره في ذرية إسماعيل، ثم قصد الكعبة المعظمة راجلاً وطاف بها، وأفرغ على أهل الحرم أموالاً كثيرة حتى أغناهم أجمعين. ثم أعطى نصراً كنزاً من الذهب وارتحل من مكة مشكور السعي موفور الأجر.

عبور الإسكندر إلى ديار مصر
وما جرى بينه وبين قيذافه ملكة الأندلس

قال: فجر العساكر إلى جدة، وأمر أصحابه باتخاذ السفن والزواريق، وركب البحر وعبر إلى ديار مصر. فاستقبله ملكها، وكان يسمى قيطون، بالهدايا والتحف والمبار والخدم. فدخل مصر وأقام بها سنة. قال: وكان مُلك الأندلس إلى امرأة كانت تسمى قيذافه. وكانت ذات شوكة عظيمة وعساكر كثيرة وممالك فسيحة. وكانت قد نفذت إلى مصر مصوراً وأمرته أن يبصر الإسكندر ويرسم

صورته على حريرة يحملها إليها. فجاء المصور وصور صورة الإسكندر قائماً وقاعداً وراكباً، متبذلاً ومتجملاً، حاسراً ومتسلحاً. فانصرف بها إلى صاحبته. فاتفق أنه جرى ذات يوم عند الإسكندر ذكر قيذافه، فسأل الإسكندر عن حالها قيطون ملك مصر. فوصف له ما تخصصت به هذه المرأة من بسطة ملكها ونفاذ حكمها. وذكر أن لها مدينة من الحجارة طولها أربع فراسخ فى عرض مثلها. وهى مشحونة بالأموال والرجال. فكتب إليها الإسكندر كتاباً يأمر فيه بالتزام الخراج له وأدائه إليه، وتوعدها بأنها إن لوت رأسها عن ذلك لم يخاطبها إلا بالسيف. وجعل ينبهها على الاعتبار بدارا وفور، فإن فى الاعتبار بهما ما يغنيها عن ناصح يرشدها إلى سبيل الطاعة. فلما وصل الكتاب إلى قيذافه أجابت عنه على مقتضى غلوائها بما لم يرضه الإسكندر. فارتحل فى عساكره قاصداً قصدها وسار مسيرة شمس فوصل إلى مدينة حصينة من حدود ممالكها. وكان عليها ملك يسمى فيران صاحب شوكة وثورة. فحاصرها الإسكندر ونصب عليها العرادات والمجانيق ففتحها بعد أسبوع. ولما دخل المدينة منع عساكره عن إراقة الدماء. وكان صاحب هذه المدينة قد زوج ابنة له من ابن لقيذافه يسمى قيذروش. وكان قد جاء إليه لإقامة رسم العرس فوقع هو وزوجته فى يد رجل من أصحاب الإسكندر يسمى شهركير فبلغ ذلك الإسكندر، فسنح له رأى فاستحضر وزيراً له يسمى بيطقون وأعطاه تاجه وتخته، وأمره أن يقعد فى مكانه من منصب السلطنة فى مجلس خاص لا يحضره عامة أصحاب الإسكندر. وواطأه على أنه إذا أتوه بابن قيذافه، يأمر بضرب رقبته فيشفع إليه الإسكندر وهو واقف على رسم الخدمة فيهبه له. ثم يدعوه يعنى الإسكندر ويرسله إلى قيذافه مع عشرة فرسان، ويأمره بأن يوصل رسالته ويعجل الرجوع بجوابها. قال: فلما كان الغد لبس وزيره التاج وجلس على التخت ووقف الإسكندر ماثلاً فى الخدمة فجاء شهركير بابن قيذافه مع عروسه، ودخل بهما

عليه. فلما رآه قال: " من ذا الرجل؟ ". قال الشاب: " أنا ابن قيذافه. وكنت تزوجت بابنة صاحب هذه المدينة فقدمتها بسبب العرس فأصبحت أسيراً فى يدى شهركير، جريحاً منكوس الطالع ". فتغضب عليه بيطقون وأمر بضرب رقبته مع زوجته. فبادر الإسكندر وقبل الأرض بين يديه وتشفع فيه واستوهبه منه فوهبهما له. ثم التفت الملك المعمول إلى ابن قيذافه وقال: " قد تخلصت برأس كاد يفارق جسدك. والآن أرسلك مع الشفيع فيك إلى أمك كى تبلغها رسالتى، وتخبرها بعظم ملكى وشدة شوكتى، وتحثها على التزام الخراج وأداءه. وهو دستورى وصاحب رأيى فاعمل معه ما عمل معك. وإذا سمع الجواب من الملكة فسرحه إلى كما يليق بك ". فقال: " ما حفظ على حياتى سواه. ولا أعامله إلا بما عاملنى ". فاختار الإسكندر عشرة أنفس من ثقات أصحابه وحفظة سره، واستصحبهم وأمرهم ألا يسموه إلا بيطقون. فتقدمه ابن قيذافه، وسار الرسول مقتفيا أثره فى سير حثيث فوصلوا فى طريقهم الى جبل أحجاره بلور وعلى الجبل ثمار كثيرة من كل نوع، وشاهد عليه قروداً كثيرة. فعبروا وساروا إلى قرب المدينة فاستقبلت الملكة ولدها. ولما اجتمع سرد عليها جميع أحوال الإسكندر وما عمل فى مدينة فيران من الأسر والنهب. ثم سرد عليها قصة أسره مع صاحبته، وما هم به الإسكندر من قتله وإراقة دمه، وأنه ما خلص إلا بشفاعة هذا الرسول. فارتعدت فرائصها من الفزع.

ثم استحضرت الرسول إلى إيوانها وسايلته وأكرمته ثم أنزلته فى موضع يليق به، وأدرت عليه الأنزال، ونفذت إليه التحف والمبار. ثم إنه لما أصبح ركب إلى خدمة الملكة فرفعت دونه الحجب وأدخلوه راكباً إلى الدهليز. فدخل ورأى الملكة قاعدة على تخت من العاج معتصبة بتاج من الفيروزج، وعليها قباء صينى منسوج بالذهب، وهى كأنها فى إشراق الشمس، فى مجلس سواريه من البلور، وسقوفه من الجزع المرصع بالجوهر، على رأسها جواريها فى

زينتهن. فبهت الإسكندر لما شاهد إذ لم يكن رأى مثل ما رأى فى بلاد الروم ولا فى بلاد إيران. ولما قرب من الملكة قبل الأرض وخدم فأكرمته وأكثرت من مسايلته. ثم مدوا السماط وطعموا. ولما خلا المجلس من الأجانب أمرت بإحضار الشراب والمغنين. وكان أول شربهم على اسم الملكة وكانت فى أثناء الشرب تكثر النظر إلى الإسكندر، فأمرت خازنها فجاء بالحريرة التى فيها صورة الإسكندر مصورة. فلما أحضرت نشرتها وجعلت تنظر فيها وتنظر إلى وجه الإسكندر فعلمت أنه الإسكندر وأنه جاءها فى زى رسول. فقالت له: " أيها الرسول المسترسل! هات ما حملك الإسكندر ". فقال: " إنه أمرنى وقال: قل لقيذافه الطاهرة لا تطلبى غير سبيل السداد، ولا تخالفى أمرنا، ولتكن يقظتك لك نافعة، واعلمى أنا لما تحققنا من عقلك ورأيك ودهاءك وحزمك لاطفناك فى المقال ولم نبدأك بالقتال. والأصوب لك بذل الخراج والتزامه لنا. فإنه لا يخفى عليك أنه ليس لك بمقاومتنا يدان ". فغاظها ما سمعت منه لكنها آثرت السكون والسكوت. وصرفته إلى منزله ووعدته بأن تجاوبه غداً عن رسالته. فانصرف الإسكندر وعاد إليها من الغد فدخل عليها فى مجلس من البلور منجد بالعقيق والزبرجد، أرضه من العود والصندل، وسقفه من الجزع والزبرجد. فأدهشه ما رأى وبهره ذلك المنظر الأنيق. ثم تقدم حتى قرب من الملكة فأجلس عند التخت على كرسى من الذهب. فقالت له: " كأنك قد قضيت العجب من هذا المجلس ". فمدحها الإسكندر وقال: " إنك أعلى الملوك شرفاً ومنصباً وأبهرهم جلالة ورفعة، وإن بحرك لحاو لكل جوهر، وإنك مجتمع كل عز ومفخر ". فضحكت لقوله. ثم انتفض المجلس وخلت به وقالت: " يا ابن فيلقوس! إن قتالك سرور، وإن نعيمك بوس ". فعرفته بذلك أنها عرفته. فاصفر وجهه، وأرعب قلبه فأنكر ما ذكرته. فجاءت بصورته فلما رآها تحير وأظلم فى عينه النهار، وقال: " لو كان معى خنجر لقتلتك أو قتلت نفسى لصنيعى وتغريرى بروحى ". فضحكت

وقالت: " لا تحتد أيها الشهريار ولا تغتر بنفسك. أين صحة دعواك فيما تزعم أنك عالم الأرض؟ وأى قيمة لعلمك وقد حملك على أن قدمت بنفسك بين أشداق الثعبان، وعرضتها لبائقة لا تبقى ولا تذر؟ ولكنى أعاف إراقة دماء الملوك. فكن آمنا على نفسك فإنى لا أسميك مادمت هاهنا إلا بيطقون، محافظة على سرك. ولكن لا ينبغى أن يقف ولدى طينوش على أنك محب للإسكندر أو ناصح له أو قريب منه. فإنه رجل خفيف الرأس. وهو ختن قتيلك فور ملك الهند. وأخشى أن ينالك منه مكروه. وانصرف الآن مسرور القلب منشرح الصدر آمن النفس ". فانصرف الإسكندر. ولما كان من الغد ركب إلى الخدمة فدخل عليها في مجلس من العاج منجد بألوان الجواهر، وعندها ولداها طينوش وقيذروش. ولما قعد فى مكانه سايلته وقالت له: " اكشف لنا عن سرك، وأخبرنا بما يريد منا الإسكندر ". فقال: " أيتها الملكة! قد طال مقامى عندك. والذى أمرنى به الإسكندر أن أدعوك إلى طاعته والتزام الخراج له، وإن لم تفعلى ذلك رجعت وأتاك بجنوده التى لا قبل لك بها ". فلما سمع ذلك طينوش استشاط والتهب كالنار المحرقة، وقال: " كأنك أيها اللئيم الجاهل لا تدرى عند من تتكلم. ولا أشك فى خفة رأسك وامتلائه من العجب. أما تقول من صاحبك، وبماذا يعرف بين الملوك؟ ولولا روعة هذه الحضرة لقطعت رأسك كأترجة تقطف من شجرة ". فصاحت عليه أمه وأمرت بإخراجه. وقالت: " هل هو إلا رسول بلغ ما حمل؟ ومن سمع برسول قتل؟ ". ثم لما خرج ابنها قالت: " إن هذا صبى نزق، وأخاف أن يصيبك منه مكروه. وأنت أعقل الناس فأشر على برأيك فيه ". قال: " فرديه إلى خدمتك ". فأمرت برده إلى الحضرة. فلما عاد تملق له الرسول وفيل رأى الإسكندر، وسفه عقله فى إنفاذه إلى تلك الحضرة بمثل تلك الرسالة. وأظهر بغضه له وكراهته لأمره. ثم قال له: " إن أخذت بيد الإسكندر وأضعها فى يدك أعزل فرداً ليس معه سلاح ولا عسكر فأى شئ يكون لى عندك؟ ". فانخدع بما

قال وسر به وقال: " إن وفيت بذلك جعلتك على جميع عساكر الغرب أميراً واتخذتك دستوراً ". ثم قال له: " وكيف تقدر على ذلك؟ ". فقال: " تنتخب ألف فارس من شجعان أصحابك، وتأتي معي، ومعك مال كثير وتحف فاخرة. فأتقدمك إليه وأعلمه بمجيئك وأحمله على أن يركب في جماعة من فلاسفته إلى استقبالك. فتخرج إليه من المكمن فتأخذه وترى فيه رأيك ". فجعلت قيذافه تتعجب من حيله، وتعض على شفتها وتبتسم. فتصافقوا على ذلك وخرج الإسكندر إلى منزله. ولما أصبح عاد إلى الخدمة فدخل عليها وخلا بها فحلف بالله وروح القدس، قال: وبدين المسيح والصليب الأكبر وسائر الأيمان المغلظة أنه بعد ذلك لا يقصد أرض الأندلس لا بنفسه ولا بعسكره ولا يغدر بولدها، وأن يعاملها بالوفاء ولا يسلك معها طريق الجفاء، وأن يكون لصديقها صديقاً ولعدوها عدواً. فلما ظهر للملكة صدقة استحضرت أكابر حضرتها وأركان دولتها فجلسوا على كراسي من الذهب وضعت لهم في إيوانها. ثم أحضرت ابنيها وجميع أقاربها ثم فاوضتهم واستشارتهم فيما جاء به رسول الإسكندر، وذكرت لهم أن مصالحته أولى وأجدر، وكف عاديته بالمال أحرى وأحزم. فاستصوبوا رأيها واستحصفوا عقلها، ودعوا لها بحسن نظرها لهم. ثم إنها فتحت أبواب كنوزها، وأخرجت تاج أبيها، وكان مرصعاً بجواهر لا يعرف قيمتها أحد. فقالت للإسكندر: " إن هذا لا يصلح إلا لك. ولما رأيتك مستحقاً لهذا التاج آثرتك به على ولدي ". وأحضرت تختاً في سبعين قطعة بعضها يركب في البعض عند نصبه، وهو مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد يشتمل من كل جنس منها على أربعمائة قطعة وازنة. وكان حمل أربعين جملاً. وأخرجت أربعمائة قطعة من أنياب الفيلة، وأربعمائة عدد من جلود النمور البربرية، وألف عدد من جلود الأوعال الملمعة، ومن أنواع الثياب ثمانمائة تخت. وكان بعض التخوت منحوتاً من خشب الشيزي وبعضها منحوتاً من العود الرطب الذي لو

طبع بطابع لبان فيه أثره، وألف قطعة من السيوف الهندية، وألف جوشن ومغفر، ومائة فرس بآلاتها، ومائتى جاموس برعاتها، ومائة كلب سلوقى يسبق السهم المرسل فى الصيد. ثم أمرت بتسليم ذلك كله إلى بيطقون الرسول، وأمرته بالانصراف من الغد. فلما طلع الصبح ركب الإسكندر وركب طينوش فى فرسانه، وساروا متوجهين نحو الإسكندر. وكانوا يحطون ويرحلون إلى أن قربوا من المعسكر، وانتهوا إلى غيضة كثيرة الماء والشجر. فأنزل طينوش وقال: " أنا أسبقك إلى المعسكر، وأدبر فى إنجاز ما سبق به الوعد. وسار إلى أن وصل إلى مخيمه فتلقته الأمراء والملوك، واستبشروا بمقدمه، وقد كانوا أيسوا منه حين أبطأ عليهم. فانتخب منهم ألف فارس شاكى السلاح ورجع إلى تلك الغيضة، وأحدق بمن معه بها. فلما رأى طينوش ذلك ارتعد فزعاً، وعض على يديه ندماً. فقال: " أيها الشهريار! إنك عاهدت أمى على غير ما أرى منك ". فقال: " لا تفزع فلست أنقض عهد أمك أبداً. وقد حلفت أن أضع يد الإسكندر فى يدك. وقد أبررت يمينى حين ضربت بيدى على يدك عند أمك، وقد خرجت عن عهدة القسم فى ذلك اليوم. وأنا الإسكندر والرسول معاً. وعلمت الملكة بذلك ولم يخف عليها ". ثم جلس تحت تلك الأشجار وأمر بترتيب المجلس. ومدوا السماط وطعموا وشربوا. ثم خلع عليه خلعة خسروانية تليق به، وأعطى أصحابه عطايا كثيرة وخلع عليهم خلعاً رائقة، وصرفه إلى أمه.

تطواف الاسكندر فى أقطار العالم

وما رأى فيها من العجائب

قال صاحب الكتاب: ثم إن الإسكندر سار فى عساكره الى أن وصل إلى مدينة البراهمة، فلما علموا بوصوله خلصوا نجياً، واجتمع رأيهم على أن كتبوا إليه كتاباً يقولون فيه: " أيها الملك: ماذا تريد من مدينة سكانها عباد الله؟ فإن

كنت تريد منهم المال فما أنقص عقلك. وهم قوم ليس عندهم سوى الصبر والعلم. وذلك مما لا يسلبونه. ولو أقمت ها هنا لاحتجت أن تأكل الحشيش كما يأكلون ". وكان الواصل بهذا الكتاب إلى الإسكندر رجلاً حافياً حاسراً ملتحفاً بإزار منسوج من الحشيش. فلما قرأ الكتاب ترك العسكر فى مكانه، وركب فى جماعة من فلاسفته، وصار إليهم إلى مدينتهم. فاستقبلوه وأحضروه من قوتهم الذى كانوا يزجون به وقتهم، ودعوا له وأثنوا عليه. فرآهم قوماً حفاة عراة قد ستروا عوارتهم بأزر من الحشيش، ورأى فيهم عابداً قد اتزر بجلد غزال. فخاطبهم الإسكندر فى أمر ملبوسهم فقال: " من ولد عرياناً فلا ينبغى له أن يكون حريصاً على الملبوس على أنه إذا واراه التراب فهو على خوف من العذاب والبوس ". فسأله الإسكندر عن أعظم الذنوب فقال: " الحرص على الدنيا. وإن أردت أن تقف على حقيقة ذلك فاعتبر بنفسك. فإنك مع احتواءك على جميع ممالك الأرض طالب إليها الزيادة غير قانع بعظيم ما أوتيت من الملك والسيادة ". ثم قال لهم: " ارفعوا إلى حوائجكم فلن أدخر عنكم شيئاً، وأسعفكم بمطالبكم عفواً ". فقال لهم أحدهم: " أيها الملك! أغلق دوننا باب الشيب والموت ". فقال له: " كيف تسلم من الموت وهو لا محالة يهدم بناء عمرك وان كان من حديد؟ وكيف تنعم بالشباب ومشرعه لابد أن يكدر برنق المشيب؟ ". فقال له البرهمى: " اذا كنت تعلم أنه لا مفر من الموت ولا سلامة من غصة الشيب فما بالك تطلب الاحتواء على العالم بجهدك، وتعرض للسم القاتل نفسك، وتتعب لغيرك، وتجمع لمن يفرقه من بعدك؟ والشيب بين يدى الموت نذير؟ وإذا طمعت فى الحياة بعده فليس لك عذير ". ثم إن الإسكندر وهب لهم هبات كثيرة فما قبلوها، واستعرضهم حوائجهم فما عرضوها. فانصرف عنهم. وسار حتى وصل إلى بحر عظيم فرأى عنده رجالا متنقبين كالنساء لا يعرف لسانهم عربى ولا فهلوى. وكان قوتهم من السمك وحيوان البحر. ثم إنه لمح وسط البحر جبلا

أصفر كالشمس فأمر بإلقاء سفينة فى الماء ليركبها ويشاهد عجائب ذلك الجبل. فمنعه من ذلك بعض الفلاسفة وقال: لا تخاطر بنفسك وليركبها غيرك ممن يأتى بخبره. فأركب تلك السفينة ثلاثين شخصاً من الروم وغيرهم. فلما قربت السفينة من الجبل تحرك. وإذا به حوت فالتقم السفينة بمن فيها. وانساب فى البحر. فتعجب وقال: " العلماء حفظة أرواح الملوك. فطوبى لمن عرف قدرهم واتبع أمرهم ".

سار الإسكندر الى أرض قصباء كبيرة القصب كأنها أشجار الدلب عظماً. وفيها غدير عظيم ماؤه زعاق كأنه سم ذعاف. فعبر منه. وانتهى إلى ساحل بحر آخر عظيم فصادف أرضاً طيبة العرف كأنها تتأرج بأريج المسك، وماء عذب المذاق فى حلاوة الشهد. فنزلوا واستراحوا فبيناهم فى منزلهم إذ خرجت من الماء أفاع كثيرة، وطلعت من الأجمة عقارب كالنار ملتهبة، وأتتهم من جميع جوانبهم فحول من الخنازير ذوو أنياب كالحراب، وضوارى سباع ما لأحد بها طاقة. فهلك من الأكابر والأمراء خلق كثير. فارتحلوا وانحازوا عن ذلك المكان. وطرحوا النار فيما كان هناك من القصب حتى احترق. وقتلوا كثيراً من السباع. فسار من ذلك المكان إلى أرض الحبشة فاجتمعت منهم آلاف مؤلفة من كل غرابى ترتج الأرض بنعيبه، ويمتلئ الجو بنعيقه. فقاتلوه برماح أسنتها من العظام فقتلوا كثيراً من أصحابه. فأمر عند ذلك رجاله بالجد فى قتالهم فتدججوا وصافوهم فكانت الدبرة على الحبشة فأفناهم القتل.

ولما جن الليل سمعوا صوت الكركدن فتصدى لهم. وهو حيوان أعظم من الفيل له قرن فى أم رأسه فى لون النيل. فأهلك خلقاً من أصحابه. ثم رشقوه بالسهام فانهد كأنه جبل من حديد. ثم لما أصبح رحل وسار حتى وصل إلى أرض فيها خلق عراة كأنهم أشجار باسقة. فلما رأوا الإسكندر صاحوا واجتمعوا

وقاتلوهم بالحجارة وأمطروها عليهم. فواقعهم أصحاب الإسكندر وقتلوهم حتى لم يبق منهم إلا قليل. وسار حتى وصل إلى مدينة كبيرة بين يديها جبل عظيم يكاد يمس السماء فاستقبله أهلها بالتحف والمبار والخدم فأحسن إليهم. ثم سايلهم عن الطريق فقالوا: " أيها الملك: كان الطريق على هذا الجبل. وقد قطعه الآن ثعبان عظيم لا يتجاسر معه أحد على العبور فيه. وله علينا كل يوم وظيفة خمسة ثيران نلقيها إليه فيبتلعها وينكف بذلك عن أن يتقدم إلى هذا الجانب. فأمر الإسكندر بخمسة ثيران فذبحت وسلخت جلودها وحشيت سما ونفطا. فأمر بإصعادها إلى الجبل وإلقائها الى الثعبان. فابتلعها فلم يلبث أن تقطعت أمعاؤه من السم. وصعد بخار السم والنفط إلى دماغه فأخذ يضرب برأسه على الجبل حتى انفلق وتشقق. فقطعوه بالسيوف.

وعبر الإسكندر بعساكره وسار حتى وصل إلى جبل آخر عال فى السماء فأصعدوا فيه فرأوا على رأس الجبل تختاً من الذهب منصوباً وعليه شيخ ميت مسجى بديباج على رأسه تاج مرصع بجواهر تزهر للعيون. فلم يتجاسر أحد على القرب منه. وكان كل ما يقدم إليه تأخذه الرعدة فى مكانه ويموت فى وقته. فلما صعد الإسكندر ذلك الجبل ورأى التخت سمع هاتفاً يقول: " أيها الملك! قد جهدت زماناً طويلاً وأفنيت من الملوك كثيراً. وقد دنا وقتك وحان حينك ". فعظم عليه ذلك واصفر لونه. وسار قاصداً قصد مدينة هروم. وهى مدينة سكانها بنات أبكار لا يمكن أحداً من القرب من المدينة، لم يخلق للواحدة منهن إلا ثدى واحد وهو الأيمن فحسب، وهن فى الأيسر كالرجال. قال: فكتب الإسكندر إليهن كتاباً يدعوهن إلى الطاعة، ويذكر أنه ما جاء لقصد قتالهن ولا لنهب بلادهن، وأنه لم يرد سوى رؤية المدينة والاعتبار بأحوالها. ونفذ بالكتاب فيلسوفاً وأمره بأن يلاطفهن فى الخطاب ويرجع إليه بالجواب. فصادف الرسول أهل المدينة نساء كلهن ليس فيها رجل. فاستقبلنه على الخيول فى آلات الحرب

فقرأن الكتاب وقلن في جوابه: " إنك رجل كبير، وصيتك عال رفيع. فلا تفسدنه بأن يقال إنك قاتلت النساء وانهزمت منهن. فإن ذلك يجر عليك عاراً لا يزول أبداً. ولكن إن جئت للتطواف في مدينتنا والنظر إليها والوقوف على أحوالها أكرمنا مقدمك وتلقينا بالجميل موردك ". وختمن الكتاب وأنفذنه على يدى امرأة عاقلة في ملابس الملوك ومعها عشر فوارس منهن. فلما أتت الإسكندر ووقف على ما صحبها من الجواب أكرمها وقال: " ما لى حاجة فى مدينتكم سوى النظر إليها. وإذا حصل ذلك عبرت وتجاوزت إلى طرف آخر ". فعادت وأعلمت صواحبها بما جرى. فاجتمعن واتفقن على إعداد تحف برسم الملك، من التيجان المرصعة والجواهر النفسية وغير ذلك مما يصلح أن يخدم به الملوك.

ثم رحل الإسكندر من منزله وسار فهاج عليهم بعد مرحلتين هواء شديد وتغيمت السماء وسقط عليهم ثلج أهلك خلقاً من أصحاب الإسكندر. فسار فى ذلك الزمهرير منزلين. ثم شاهدوا دخاناً مرتفعاً فى السماء وسحاباً أسود كأنه يمطر النار فحمي الهواء وعظم الحر حتى حميت الدروع على أكتاف الرجال فأحرقتها. فسار على ذلك فوصل إلى مدينة فيها ناس سود الوجوه كالسبج، هدل الشفاه، تتوقد النار من أحداقهم وتخرج من أفواههم. فاستقبلوا الإسكندر وخدموه بفيلة عظيمة وتحف كثيرة وقالوا: " إنا لم نر أحداً وصل إلى هذه المدينة، ولم نر راكب فرس قط. فأقام الملك فيها شهراً.

ثم سار قاصداً قصد مدينة النساء فعبر إليه البحر جلائل أهلها فى ألفين من فوارسهن مستقبلات له فقدمن إليه برسم الهدية تيجاناً مرصعة وجواهر نفيسة وثياب وَشى. ثم ركب الإسكندر ووصل إلى المدينة فأكرمن مقدمه ونثرن عليه نثارات، وخدمنه بتحف ومبرات. ولما رأى المدينة وأهلها، ووقف على أحوالها خلع عليهن وأحسن إليهن، وارتحل.

وسار قاصداً قصد مغرب الشمس فوصل إلى مدينة فيها ناس حمر الوجوه صفر الشعور فسايلهم الإسكندر عمن يعرف عجائبها. فقال له من أهل تلك المدينة شيخ طاعن فى السن: " إن وراء مدينتنا عيناً كبيرة فيها تغرب الشمس وتغيب. ووراء هذه العين ظلمات، وفيها من العجائب ما لا يحيط به الوصف. وقد قال بعض عبادنا: إن فيها عيناً يقال لها عين الحياة من شرب منها يخلد ولا يموت. لأن مدد مائها من أنهار الفردوس. ومن اغتسل فيها تساقطت عنه ذنوبه ". فقال له الإسكندر: " كيف تسلك الدواب طريق هذه الظلمة؟ ". فقال: " من أراد أن يسلك طريقها لا ينبغى أن يركب إلا مهراً ". فأمر الإسكندر بجمع الخيل فاختار منها عشرة آلاف مهر رباع قوى. وسار فى عساكره حتى وصل إلى مدينة كبيرة فيها نعم كثيرة وبساتين وسيعة وقصور رفيعة فنزل فيها. وصار وحده إلى مغرب الشمس فبقى ينتظر غروبها. فلما كان عند الغروب شاهد قرص الشمس وهى تغيب فى تلك العين. فجعل يسبح الله تعالى ويقدسه. ثم انصرف إلى معسكره فانتخب من أصحابه من عرفه بالعقل والصبر. وتزود لأربعين يوماً، واختار من يصلح أن يتقدم أمامهم ويسير بين أيديهم. فوقع الاختيار على الخضر فإنه كان سيد الجماعة وصاحب الرأى فيما هم بصدده. ففوض الإسكندر إليه أمره، وقال: " أيها الرجل المتيقظ! نبه قلبك لهذا الأمر. فإنا إن عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى إلى آخر الأبد. وإن معى خرزتين تتقدمان كالشمس فى جنح الليل. فخذ إحداهما، وسر قدام القوم، وتكون الأخرى معى. وأنا والعسكر نقتفى أثرك ونبصر ماذا قسم الله تبارك وتعالى لنا". فتقدم الخضر، وسار الإسكندر فى أثره حتى سار فى الظلمات مرحلتين. ولما كان المنزل الثالث عرض لهم فى الظلمات طريقان فسار الخضر فى إحدى الطريقين، ووصل إلى عين الحياة فشرب منه واغتسل وفاز بالمطلوب وضل الإسكندر عنه فسلك الآخر فأفضى به إلى الضوء، وخرج من الظلمة فرأى جبلاً

شاهقاً فى السماء على رأسه أشجار من العود، وعلى كل شجرة طائر أخضر، فلما رأته الطيور نطقن بإذن الله باللسان الرومى. فدنا من طائر وأصغى ليسمع كلامه فقال له: " ماذا تريد أيها الثعبان من الدنيا الفانية؟ وأنت لو بلغت السماء لم يكن لك بد من الموت ". ثم قال للإسكندر: " هل حدث الزنا وهل استعمل الآجر فى البناء؟ ". فقال: نعم. فقال: " وهل قرع سمعك صوت المزهر، وصياح السكران، ونغم الغناء؟ ". فقال: نعم. فنزل إليه الطائر عند ذلك وقال: " أيما أكثر: العلم مع السداد أم الجهل مع الفساد؟ ". فقال: " العالم بين الناس عزيز ". فرجع الطائر إلى مكانه، وقال له: " هل يسكن العباد فى بلادكم الجبال؟ ". فقال: " وهل لهم سكنى إلا فى الجبال؟ ". ثم قال له: " اصعد إلى رأس هذا الجبل وحدك راجلاً ليس معك أحد فأبصر ما هنالك ". فصعد الإسكندر وحده فرأى إسرافيل عليه السلام. على رأس هذا الجبل وبيده الصور، وقد نفخ شدقيه، وملأ من الدموع عينيه ينتظر متى يأتيه الأمر فينفخ، قال: فلما نظر فى وجه الاسكندر صاح عليه وقال: " يا عبد الحرص! لاتجهدن هذا الجهد فسوف يأتيك الأمر بالمسير، ويقرع سمعك النداء بالرحيل ". فقال الاسكندر: " لم يقسم لى غير الحركة والطواف فى أقطار الأرض ". ثم نزل من الجبل حليف كآبة ورنين. وعاد القهقرى إلى الظلمات. فلما توغلها هتف هاتف من الجبل الأسود الذى كان هنالك وقال: " من يحمل من حجارة هذا المكان يندم ومن لا يحمل منها فهو أيضاً يندم ". فحمل منها بعضهم وأعرض عنها بعضهم. فلما خرجوا من تلك الظلمات رأوا تلك الحجارة جواهر ويواقيت فندم من حمل حيث لم يستكثر، وندم من لم يحمل حيث لم يحمل.

قال: ثم إن الإسكندر أقام بعد خروجه من الظلمات مقدار أسبوع. ثم ارتحل متوجهاً نحو المشرق فسار حتى انتهى إلى مدينة كبيرة فاستقبله أكابر أهلها فأكرمهم الإسكندر وأحسن إليهم. ثم سايلهم عن عجائب ما هنالك فأجهشوا إليه

بالبكاء وقالوا: " أيها الملك! إن أمامنا أمراً عظيماً لابد لنا من عرضه على رأيك. ونحن منه فى عناء وتعب شديد. وذلك أن وراء هذا الجبل يأجوج ومأجوج. وهم يفسدون فى أرضنا ويعيشون فى بلادنا. وهم فى خلقهم بحيث لا تتجاوز قامة أحدهم شبراً. ومع ذلك فقد ملئوا الأرض فساداً وشراً. ولهم وجوه كوجوه الإبل، وأنياب كأنياب الخنازير. ألسنتهم سود وأعينهم حمر. وعلى أبدانهم شعور فى لون النيل، ولهم آذان كآذان الفيلة. إذا نام أحدهم افترش إحدى أذنيه والتحف بالأخرى. لا تموت الأنثى منهم حتى تلد ألف مولود. وهم فى الكثرة بحيث لا يعرف عددهم إلا الله عز وجل. وإذا كان فصل الربيع وجاش البحر وأرغد الجو احتمل السحاب التنين من البحر فألقاه إليهم. فيجتمعون إليه ويأكلون منه حتى تعبل أجسامهم وتسمن أبدانهم. ويكون ذلك من السنة إلى السنة. وفى سائر السنة يجتزئون بنبات الأرض وبما يختطفونه من كل جانب، وإذا كانت أيام الشتاء اعتراهم الضعف حتى يصير صوت أحدهم فى رز صوت الحمام. وإذا أقبلت أيام الربيع عادوا كالذئاب الضارية. فإن أنعم الملك بالتدبير فى كفاية شرهم وكف معرتهم شكر سعيه بكل لسان، ودام ذكره إلى آخر الزمان ". فتعجب الإسكندر مما أوردوا واهتم لذلك. ثم غاص فى بحر الفكر فقال لهم: " إنى أعاونكم منى بالأموال والكنوز فعاونونى بنفوسكم حتى أعمل دونهم سداً بقدرة الله الذى لا إله إلا هو سبحانه وتعالى. فدعوا له وقالوا: " إنا كلنا عبيدك فيما تأمر به. فجاء الإسكندر فى علماء فلاسفته وأصحاب رأيه فنظر إلى الجبل فأمر باستدعاء الحدادين والفعلة، وأمر بإحضار النحاس والرصاص والجص والحجارة والحطب. فجمعوا من كل واحد ما لا يحيط به الحصر. وحشر صناع الأقاليم فسد ما بين الجبلين بسدين من قرار الأرض إلى رأس الجبل. وجعلوا الأساس فى عرض مائة ذراع. فكانوا يصفون من زبر الحديد صفاً فى مقدار ذراع، ويضعون عليه الفحم والنحاس، ويجعلون الكبريت فوقه، ثم صفاً آخر

فوقه كذلك ثم آخر وآخر حتى انتهى إلى رأس الجبل وساوى ما بين الصفين. ثم خلطوا النفط والدهن وأفرغوه على رأس الجميع ثم صبوا عليه الفحم ثم ألقوا فيه النار. واجتمع عليه مائة ألف حداد ينفخون فيه فارتفع الدخان فى السماء وتمكنت النار فيه وبقيت كذلك تتقد زماناً حتى تراصت الأجزاء وتهندم البناء. فتخلص العالم بالسد الإسكندرى من شر يأجوج ومأجوج وعاديتهم ولله الحمد. قال: وطول هذا السد خمس خمسمائة ذراع فى عرض خمسمائة ذراع.

ولما أحكم الإسكندر ذلك ارتحل من تلك المدينة وسار مسيرة شهر فوصل إلى جبل من اللازورد، على رأسه بيت من الياقوت الأصفر، فيه قناديل معلقة من البلور، وفى وسطه عين ماء مالح فيه جوهر أحمر له إشعة تنبث أنوارها على الماء فيمتلئ البيت منه بالأضواء. وعند العين تخت من الذهب منصوب عليه شخص مسجى مضطجع، رأسه كرأس خنزير، وبدنه كبدن إنسان، قد فرش تحته الكافور. وكان من قصد أخذ شئ من ذلك البيت تأخذه الرعدة ويموت فى مكانه. فسمع الإسكندر هاتفاً من تلك العين يقول: " أيها الرجل الحريص! لا تحرصن هذا الحرص كله فقد رأيت ما لم يره أحد. فالواجب أن تصرف عنانك فقد دنت أيامك، وشارف الانقضاء ملكك. ففزع الإسكندر وأسرع الانصراف إلى معسكره.

ثم ارتحل وسار حتى خرج من البرية وانتهى إلى مدينة آهلة ففرح حين سمع صوت الإنس واستأنس. فتلقاه أهل المدينة وأظهروا السرور بمقدمه، ونثروا عليه النثار الكثير، وقالوا: " نحمد الله حين جعل عبورك علينا. فإنه لم يأت هذه المدينة عسكر قط ولا سمع فيها اسم ولا ذكر لملك ". فسايلهم عن عجائب مدينتهم فقال بعضهم: " أيها الملك! إن هاهنا عجباً لا يوجد فى العالم مثله. وذلك أن هاهنا شجرتين ذكراً وأنثى ينطق الذكر بالنهار والأنثى بالليل ". فركب

الإسكندر واستصحب ترجماناً منهم في جماعة من أصحابه. فسأل الترجمان، وقال: " متى تتكلم الشجرة؟ ". فقال: " إذا عبر تسع ساعات من النهار تكلم الذكر. وإذا جن الليل تكلمت الأنثى ". فقال له: " وإذا تجاوزنا هاتين الشجرتين فما الذي نراه بعدهما؟ ". قال: " إن الدنيا تنتهي عند ذلك، وما بعدهما يسمى طرف العالم ". ولما قرب من الشجرتين رأى الأرض ملأى من جلود السباع فسأله عن ذلك فقال: " إن لهاتين الشجرتين عباداً يعبدونهما وإذا جاءوهما للعبادة فلا يأكلون إلا لحوم السباع ". قال: فلما انتصف النهار سمع الإسكندر من إحدى الشجرتين صوتاً أزعجه. فسأل الترجمان عما قالت فقال: " إنها تقول: ما بال الإسكندر يجول في أقطار الأرض وقد استوفى نصيبه من العيش، وعند استكمال أربع عشرة سنة من سلطانه يحين حين ارتحاله؟ ". فبكى الإسكندر وامتلأ هماً وحزناً، وبقي واجماً لا يتكلم إلى نصف الليل. فتكلمت الشجرة الأنثى. فسأله عما قالت فقال: " إنها تقول: إنك تجول حول الأرض من حرصك، ولم يبق إلا قليل من عمرك. فلا تتعب نفسك ولا تضيق عليها أمرك ". فقال له الإسكندر: " سلها هل تكون أمي حاضرة عند رأسي إذا أتاني أمر ربي؟ ". فسألها عن ذلك. فقالت: " شد رحالك وأقصر عن ظنك. فإنه لا تحضرك أمك ولا قرائبك ولا نساء بلدك. ولا تموت إلا غريباً في بلاد غيرك ". فانصرف الإسكندر وقيد القلب منخزل النفس نحو معسكره. فقدم إليه أهل تلك المدينة جواشن ودروعاً وتحفاً كثيرة فيها مائة بيضة من الذهب وزن كل بيضة ستون مناً، وصورة كركدن من الذهب مرصعة بالجوهر. فقبل هداياهم وارتحل نحو الصين.

فلما قرب منها نزل في عسكره واستحضر الكاتب فأمره أن يكتب إلى بغبور كتاباً مملوءاً بالوعد والوعيد، وختمه. واستصحب بعض ثقاته وأصحاب رأيه، وركب منهم في خمسة فرسان حتى أتى ملك الصين في زي رسول. فلما وصل

إليه أكرمه وأنزله فى موضع يليق به. ثم لما كان من غده أنفذ إليه مركوباً خاصاً بآلات الذهب واستحضره. فحضر وأدى الرسالة، ودعاه أن يبادر إلى خدمة الإسكندر ويسارع إلى حضرته. فإن لم يفعل ذلك فلينفذ إليه طرائف الصين من خيل وأسلحة وثياب وذهب وفضة ليصرفه بذلك عن أذاه. فضحك بغبور وسأله أن يصف له الإسكندر، وينعت صورته وشكله، ويصف مكارمه وسيرته. فاندفع الرسول يورد ذلك ويسرده. ثم إنه استحضر الطعام والشراب، ولما ثملوا صرف الرسول وقال: سنجيب غداً عن رسالة صاحبك. فانصرف إلى منزلة وهو بين الصاحى والسكران وبيده أترجة. ولما طلعت الشمس من غده ركب إلى حضرة بغبور فسايله ولاطفه. ثم استحضر الكاتب وأجاب عن كتاب الإسكندر. وفتح أبواب خزائنه وأخرج خمسين تاجاً مرصعاً بالجواهر وعشرة تخوت من العاج، وأوقر ألف جمل من الديباج والخز والحرير والكافور والمسك والعبير إلى غير ذلك من الذهبيات والفضيات وجلود السنجاب والقاقم والسمور. ثم اختار رجلا من أكابر الصين موصوفاً بالعقل والرأى، ونفذه بكل ذلك فى صحبة الرسول. فلما انتهى إلى ساحل البحر بادر الملاح فحمله فى مركب وعبر به إلى المعسكر. فلما أحس أصحابه بوصوله استقبلوه. ولما رأوه ترجلوا وسجدوا بين يديه. فعلم رسول بغبور أنه هو الإسكندر نفسه فنزل وسجد له. ثم لما أصبح الإسكندر جلس مجلسه من تخت السلطنة فخلع على رسول بغبور وأعطاه عطايا كثيرة وصرفه إلى صاحبه. ثم أقام الإسكندر فى ذلك الموضع شهراً من الزمان.

فلما برد الهواء ارتحل وسار حتى وصل إلى مدينة جغوان ورحل منها قاصداً قصد السند. فركب ملكهم وكان يسمى بنداه فى رجاله السود، وبرز إلى قتاله فى أمثال الأسود. فجرت ملحمة أفنت السودان عن آخرهم وأتى الأسر والنهب على نسائهم وذراريهم. ثم سار الإسكندر إلى نيمروز، وصار منها إلى

اليمن. فاستقبله صاحب اليمن بالهدايا الجليلة والتحف الكثيرة. فأكرمه الإسكندر وأحسن إليه.

ثم ارتحل من اليمن قاصداً قصد بابل فوصل فى طريقه إلى جبل عظيم فأتعبهم العبور فيه. فلما قطعوه وأسهلوا أفضوا إلى بحر عظيم فعثر بعض أصحابه فى ساحله على رجل متسربل البدن بالشعر، وله أذنان كآذان الفيلة. فاجتروه إلى خدمة الإسكندر. فقال له الإسكندر: " ما اسمك ومن أنت؟ ". فقال: " أيها الملك، إن أبى وأمى سميانى بستركوش، يعنى لحافى الأذن ". فقال له: " ما هذا الذى نراه فى وسط البحر؟ ". فقال: " مدينة طيبة، وفيها خلق طعامهم من السمك، فإن أمر الملك عبرت إليهم وأخبرتهم بمقدمه وحملت منهم جماعة إلى خدمته ". فأذن له الملك فى ذلك فعبر إليهم فى ساعة وانصرف ومعه ثمانون شخصاً من عقلاء تلك المدينة فى ملابس الخز والحرير، بعضهم شبان وبعضهم شيوخ، مع كل شيخ منهم جام مملوء من الدر ومع كل شاب تاج من الذهب. فحضروا بين يدى الملك فخدموه وسايلهم عن أمور أجابوه عنها. وأقاموا فى منزله على البحر إلى طلوع الفجر من الغد. فارتحل متوجهاً نحو بابل وقد علم أن أجله قد قرب.

وكان يخاف من الكيانيين على بلاد الروم بعد موته فعزم ألا يبقى منهم أحداً. فكتب كتاباً إلى الحكيم أرسطاليس، وذكره فيه حاله وما هم به. ثم استقدم جميع أكابر الكيانية من أوطانهم وأمرهم بالمبادرة إلى حضرته. فوصل كتاب أرسطاليس وهو يقول فيه: " قد آن لك أن ترتدع عن الشر. فاستسلم لأمر الله عز وجل، وفوض إليه أمورك، ولا تزرع فى ملكك غير الحسنى. وما أشرت إليه فلا تجزع منه ولا تهتم له. فإنا لم نولد إلا للموت، وما استصحب أحد فارق الدنيا مالاً ولا مُلكاً. وإياك أن تمس أحداً من الكيانية فإنه لا يحسن غرس العداوة

في القلوب. فاتق الله ولا تسفك دماء الأكابر، فإنه يثمر اللعن إلى يوم القيامة، ولا يورث غير الحسرة والندامة. والرأى أن تستحضر أكابر بيت الملك، وتملك كل واحد منهم بلداً أو إقليماً، ولا تجعل لبعضهم على بعض حكماً ولا يداً، ولا تسمين منهم للسلطنة أحداً حتى تشغلهم بحربهم عن بلاد الروم ". فلما قرأ الإسكندر كتاب الحكيم استحضر الأكابر الكيانية وأجلسهم فى مراتبهم فى خدمته ثم فرق عليهم الممالك، وأمرهم أن يكتب كل واحد منهم كتاب عهد يعاهد فيه على ألا يطلب الزيادة على ما فى يده، ولا يتعرض لمملكة غيره، ويجتزى بما فى حكمه وتحت يده، فاستتب منهم ذلك فسُموا ملوك الطوائف.

ذكر وفاة الإسكندر

قال صاحب الكتاب: ثم إنه وصل إلى بابل فاتفق أنه ولد فى تلك الليلة مولود له رأس كرأس الأسد، وحافر كحافر الدواب، وذنب كذنب الثور، لا يشبه الإنس إلا فى صدره وكتفه. فلما وضعته أمه مات فى الحال. فحملوه إلى حضرة الملك فتطير منه واستحضر المنجمين وسألهم عن طالع ذلك المولود وما تدل عليه أحكام النجوم فى ولادته. فأظلمت الدنيا فى عيونهم لما فهموه، وكتموا الإسكندر ما علموه. فأوعدهم وهددهم فقال له بعض المنجمين: " أيها الملك، إنك ولدت على طالع الأسد. فإذ قد رأيت رأس المولود الميت مثل رأس الأسد فقد دل على زوال ملكك وانتهاء عمرك ". واتفقت كلمة سائر المنجمين على ذلك. فاغتم الإسكندر ثم قال: " إنه لابد من الموت، ولست أهتم لذلك ". ثم مرض فى يومه ذلك وهو ببابل فاستحضر كاتبه وكتب إلى أمه كتاباً يعزيها فيه عن نفسه، ويوصى إليها ويأمرها بالصبر والرضا بما قدر له من قصر العمر، والتسليم لقضاء الله النافذ فى الخلق. وقال: " إنى قد أمرت أكابر الروم، إذا انصرفوا من هذه البلاد، بالتمسك بطاعتك والانقياد لأمرك. وأما أكابر إيران الذين كان يخاف

على بلاد الروم من معرتهم فقد ملكت كل واحد منهم إقليماً من الأقاليم حتى يمنعه الشغل بما فى يده عن بلاد الروم. وإذا مت فادفنونى فى تراب مصر، وفرقوا من خزائنى مائة ألف دينار فى هذه السنة على المشتغلين بأنفسهم من عباد الله. وروشنك – يعنى زوجته – إن ولدت ابناً فهو ملك الروم لا غير. وإن ولدت بنتاً فلتتزوج من ابن فيلقوس، واتخذيه ولداً، وجددى به ذكر الإسكندر أبداً. وأما ابنة كيد ملك الهند فردوها، إن أرادت، إلى أبيها مع خزائنها التى جاءت معها، فى عماريتها، ومع تاجها وتختها. وأنا قد استسلمت للموت عن رأس العجز بعد أن فرغت من أشغالي كلها. وقد أمرت أن يُعمل لى تابوت من الذهب، ويملأ من العسل ثم أضجع فيه مكفناً فى الديباج والحرير. وعند الانتهاء إلى ذلك ينتهى الكلام. ثم احفظى وصيتى ولا تخالفى موعظتى، ولا تمسكى من الأموال التى جمعتها من الهند والصين وسائر الأقاليم أكثر من القوت، وفرقى الباقى على المحتاجين. ثم حاجتى إليك ألا تجزعى على ولا تؤذى نفسك، واشفعى إلى الله عز وجل وأغيثينى بدعائك فإنه لا يأخذ بيدى غير ذلك ". ثم ختم الكتاب ونفذه إلى الروم على يدى بعض المسرعين.

قال ولما علم العسكر بمرض الإسكندر تسارعوا إلى خدمة تخته واجتمعوا على بابه وضجوا من وراء حجابه. فأمر الإسكندر بإخراج تخته من إيوانه إلى الفضاء فلما رأوه على ما به من الضعف أجهشوا إليه بالنحيب والبكاء. فقال لهم الإسكندر: " استشعروا الخوف، وتسربلوا لباس الحياء، ولا تعدلوا عن المحجة البيضاء، واحفظوا وصيتى، ولا تخلعوا ربقة طاعتى ". فلما فرغ من كلامه خرجت روحه فوقع العويل والنحيب فى العسكر، وقام الصراخ عليه. فأحرقوا داره التى كانت مستقره، وحذفوا من دوابه ألف فرس. ثم جاءوا بتابوت من الذهب مملوء من العسل، وغسله سكوبا بالماورد، وغمره بالكافور، وكفنه فى ثوب ديباج مذهب، ووضعه فى وسط العسل من الرأس إلى القدم، وأطبقوا عليه

التابوت. فلما رفعوه من ذلك المكان اختلفت الفرس والروم فقالت الفرس: " لا يدفن الإسكندر إلا حيث مات ". وقالت الروم: " لا يدفن إلا حيث ولد ". فقال شيخ من فارس: " إن هاهنا موضعاً يقال له جرم، وهناك جبل من سأله عن شئ أجابه عنه بإذن الله، فاسألوا الجبل حتى يحكم بينكم ". فتوجهوا نحو الجبل فسألوه فأجاب وقال: " مالكم تحبسون تابوت الملك؟ إن تراب الإسكندر فى أرض الإسكندرية التى بناها فى حياته ". فبادروا عند ذلك إلى حمله وحملوه إلى الإسكندرية. فلما وصلوا إليها خرج الخلائق واجتمعوا على تابوته حتى لو حسبهم المهندس لوجدهم يزيدون على مائة ألف. فجاء الحكيم أرسطاليس ووضع يده على تابوته وقال: " أين رأيك وعقلك أيها الملك حتى صار مسكنك هذا المكان الضيق؟ وكيف أفضيت بنضارة الشباب إلى مضاجعة التراب؟ ". وقال آخر: " أيها الملك! مازلت تدفن الذهب حتى دفنت فيه ووقعت فى خطب لا سبيل إلى تلافيه ". واجتمع علماء الروم فخاطبه كل واحد منهم بحكمة، وأبنه بموعظة. ثم جاءت أمه ووضعت وجهها على تابوته وهى تبكى وتنتحب وتقول: " ما أبعدك منى مع قربك! وما أعظم خطبك على صحبك! ". ثم جاءت زوجته روشنك بنت دارا، وطفقت تبكى وتندبه وتنتحب وتنوح عليه. ثم دفنوه ولم تكن أيامه إلا كبرق ومض، وطرف غمض.

وهذا آخر الخبر عن قصة الإسكندر. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

مُحتويات الكِتاب


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين